كابتشيكو

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠٢٠/٠٠٠٠

بطاقة فهرسة

رضوان، وائل

كابتشيكو/ وائل رضوان ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٠

٢٥٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ؟-؟؟؟-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

؟؟؟؟

تدقيق لغوي

د. إكرامي فتحي

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

كابتشيكو

حكاية

تأليف

وائل رضوان

الإهداء

إلى روح أبي الحبيب الغالي..

أهديك روايتي (كابتشيكو) التي أنهيت كتابتها بعد مغادرتك لنا بأيام قليلة...

أفتقدك بشدة يا والدي ...عزائي الوحيد أنك في مكان أفضل مما نحن فيه ...

أسأل الله أن ينير ويوسع لك قبرك، ويؤنس وحدتك، ويجعله روضة من رياض الجنة.

كتبت الحكاية على أنغام الموسيقى التصويرية لفيلم (**تراب الماس**)

للموسيقار **هشام نزيه**.

أدعوكم لتهدئة الأضواء والاستمتاع بقراءة الحكاية على أنغامها.

المواجهة قوة..... الهروب ضعف

(١)

وحيدًا يجلس على كرسيه في الركن المعتاد عليه بشرفة شقته بالدور الرابع عشر في إحدى العمارات المطلة على البحر الأبيض المتوسط بمنطقة مصطفى كامل بالإسكندرية....

الإسكندرية... التاريخ.... التاريخ حضارة.... التاريخ أصالة.... التاريخ شرف وفخر ومجد.... التاريخ خبرات وعادات وتقاليد.... التاريخ قيم ومبادئ.... التاريخ قوة.... التاريخ قاعدة يستند عليها الحاضر ومنصة للانطلاق للمستقبل....

من لا يملك تاريخًا فليصنعه....

كلما رسخنا المبادئ والقيم والتقاليد والعادات الحميدة داخل الأجيال الحالية.... رسخت وسكنت بداخل أرواحهم، وأصبحت تاريخًا يُبنى بداخلهم، ويجب الحفاظ عليه ونقله للأجيال التالية.....

هكذا يُصنع التاريخ.....

من لا يملك تاريخًا فليصنعه..... جملة قصيرة.. عميقة..

من أجل الحاضر والمستقبل.....

متأملًا موجات البحر الثائر في أحد أيام شهر يناير، وما أدراكم ما شهر يناير ونوّاته!!..

لا يعلم مدى جمالها إلا من عاش أيام شتائها ولياليها وهو ينهال بغزارة؛ فيغسل شوارعها ومبانيها، ويغسل أدران عامٍ مضى علقت على أجساد عاشقيها..

غائمة شمسها.. ملبدة غيومها..

مرتديًا ملابسه الثقيلة، واضعًا كوفيته الصوفية حول رقبته..

كوب من الشاي تتصاعد من أعماقه خطوط من الدخان الساخن؛ فيخترق جدار الصقيع وكأنه سكين حاد يقطع الزبد ويتغلغل بداخله...

يصعد ويختفي ...

تمتد يده تلتقط الكوب، وتلتف يده الأخرى حولها في محاولة لنقل الدفء إلى أطراف أصابعه المتحجرة من أثر البرد والصقيع....

لكنه يحبه ويحب جلسته هذه.. رغم دفء الجو بداخل الشقة....

(عمر السباعي) شاب قد شارف على الأربعين من عمره...

ما زال يحتفظ بقوة جسده رغم زيادة وزنه عن معدله الطبيعي، فطوله ١٨٥ سم، ووزنه ١١٠ كج ... الدهون تغلغلت بين أنسجة عضلاته ...

ملامح مصرية أصيلة تميزه... بشرته السمراء، ووجهه الوسيم ذو العينين السوداوين الحادتين، وشاربه الكثيف المميز ...

وحيدًا في شقته السكندريةيعيش..

بعدما غادر وترك حياته من خلفه بالقاهرة هاربًا أو رافضًا أو مودعًا، وانتقل للإقامة في معشوقته الإسكندرية ...

بعد أن نزع أحشاء الماضي، وودع قاهرته بمن قهره فيها....

تحرك بسيارته يطوي المسافات وكأن الأرض تنهار من خلفه..

قرر ألا ينظر للخلف الذي اعتبره سرابًا وكابوسًا فظيعًا لن يطيق استرجاع أحداثه.

وصل إلى حدودها، ودخل حرم محبوبته، واستنشق عبير نسماتها المعبقة باليود؛ فاستعاد قوته ...

توقف طويلًا عند شاطئ الشاطبي يتأمل البحر وأمواجه ...

تمنى لو يخلع ملابسه كلها، ويلقي بنفسه كما ولدته أمه في مياه البحر الباردة؛ فتُطهِّر أمواجه المالحة كل ما علق به، حتى ولو رائحة الماضي القريب.....

لَمْلَم جراحه، واستكمل رحلته إلى شقته، ولما استقر بها لم يغادرها طوال شهر كامل؛ فتحول إلى رجل من رجال الكهوف؛ أشعث الشعر ذي لحية كثيفة غير مهذبة...

يخشاه كل من يقترب من بابه؛ لقضاء طلباته التي تقتضيها استمراره في الحياة.....

ساعات طويلة يقضيها (السباعي) جالسًا بلا حركة في شرفة شقته.

يحاول أن يسيطر على حركة تروس عقله...

يحاول مسح المتبقي من ذاكرته ....

يقاوم .....

منذ أيام رآها قادمة بشعرها الطويل المجدول ووجهها الصامت...

تتحرك بهدوء وهو نائم على فراشه، حتى صارت فوق رأسه، ووضعت شعرها الكثيف فوق وجهه ...

كأنها تغتاله ... فتهدجت أنفاسه ...كادت تنقطع ... قاوم ...

ظل يحاول إبعاد شعرها من على وجهه ...كأنه يغرق ...

لما قارب على الاستسلام جذبها بقوة الغريق ...

انفصلت خصيلات الشعر عن رأسها، وتهاوت إلى جواره؛ فتحول سريره إلى فروة من الشعر، التي شكشكت جسده، وأحس بالقشعريرة تسري في خلاياه؛ فانتفض مفزوعًا ...

كان الكابوس الذي اعتاد أن يزوره كثيرًا ...

زيارات مفروضة...

الشهر الثاني له بالإسكندرية وقد بدأ في النزول صباحًا، لكن دون أن يغير شيئًا من ملامحه القاسية وشعره ولحيته الهوجاء..

يمشي من منطقة مصطفى كامل، حتى يصل إلى سان ستيفانو ويعود ...

لا يفعل شيئًا سوى أنه يمشى..

لا يلتفت لنظرات الناس المتعجبة من مظهره المبعثر رغم ما تعكسه ملامحه الوسيمة من خلف شعيراته المنكوشة.

لا يريد أحدًا... لا يريد التحدث....

لا يريد رؤية شيء سوى البحر...

أمواج البحر هي سكن روحه الوحيدة..

يتعثر كثيرًا أثناء سيره؛ فهو لا يشعر بموطئ قدميه...

هناك في النفق المؤدي للكورنيش يعبر من عمارات مصطفى كامل، ويستوقفه منظر الشاب الأشعث القابع في أحد أركان النفق بملابسه الممزقة، وتكسوه القاذورات ...

يتأمله كثيرًا، ويراه أحد ضحاياها وقد سبقه هاربًا ولم يسعفه الوقت لاستجماع ما تبقى من عقله؛ فانهار وأصبح شبحًا يسكن مغارات الأنفاق، ويقتات على بقايا الطعام من صناديق القمامة..

حتى قضاء حاجته لم تعد مهمة؛ فسرواله ممتلئ عن آخره وهو لا يشعر...

هذا بالتأكيد أحد ضحايا الحب المعذبين ...

الأيام الأولى بعد نزوله مرت كسابقتها، ولكنه بدأ يطيل المسافات؛ حتى أصبح يسير إلى نهاية شاطئ الكورنيش وصولاً لحدود سور المنتزه..

ويعود منهكًا؛ فيفتح ثلاجته، ويلتهم ما يجده، لا يهم طعمه ولا لونه ولا رائحته..

ثم يدخل الشرفة وبيده كوب الشاي الساخن، يظل جالسًا يجتهد ألا يفكر حتى ينتصف الليل، ويكاد يتجمد؛ فيدخل ويلقي (بجثته) على الفراش... فلم يعد (جسدًا).. حتى الصباح.....

وهكذا تمر الأيام....

لم يُبْلغ أحدًا بمكانه ووجهته؛ وقد اعتبر نفسه وحيدًا، وقد كان بالفعل وحيدًا .....

حتى تليفونه أغلقه، ولم يلتفت له خلال هذه الشهور ....

انقطع عن عالمه نهائيًا.....

وفي يوم من أيام شهر مارس ... بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من نهاية الفصل الأول من حياته القاهرية...

أثناء نشاطه اليومي المعتاد تعثر في الرصيف أمام شاطئ جليم، واصطدمت رأسه بأحد أركان العربات الخشبية التي وزعتها المحافظة على الشباب؛ ليديروا مشروعات استهلاكية صغيرة على طول الكورنيش (برغم

جمال المشروع وفكرته الهادفة فقد تحول في بعض الأماكن لمنصات تجمُّع بعض البلطجية حولها، والعلم عند الله ما يبيعونه، وما يتاجرون فيه على مرأى ومسمع من الجميع) ....

أعود للسباعي وقد سقط غارقًا في دمائه، والتف الناس حشودًا من حوله كعادتنا في بلدنا الدافئ...

جميلة هي مشاعر مواطنينا ...

مشاعر لا تجدها في أي بلد في العالم...

شعب عنده مروءة وشهامة ...

لكنها أحيانًا أخرى تكون تجمعات سلبية؛ حيث يدلي كل من الجموع بدلوه، ويحرك المصاب حركات غير صحيحة من الممكن أن تزيد إصابته؛ لذا يجب توعية هذا الشعب الجميل بأن يتركوا المصاب على وضعه، حتى تحضر سيارة الإسعاف، أو يظهر طبيب وسط الحضور، ويعلن عن وظيفته، ويبدأ في إجراء الإسعافات الأولية للمصاب....

أجمل شعوب العالم هو الشعب المصري.

لا يهاب شيئًا، وقت الأزمات تجده متكاتفًا.

ربما يختلفون في الآراء، ويتناحرون في المناقشات.

لكن عندما يتعلق الأمر ببلدهم وأمنهم القومي تجدهم على قلب رجل واحد....

نادى أحدهم يستغيث هل من طبيب من بين الحاضرين.

فرد عليه من الجانب الآخر أن هناك الدكتور مصطفى، ذلك الطبيب العجوز الذي يسكن في عمارة قاصد كريم، على ناصية القصر الكبير قصر الأميرة عزيزة فهمي ابنة المهندس على باشا فهمي كبير المهندسين بالقصر الملكي المطل على البحر....

عمر السباعي ممدد على كنبة وسط رسيبشن صغير، بجواره عدد من الكراسي الفوتيه الصغيرة، وبينها ترابيزة صغيرة يجلس عليها د مصطفى محمود الذي جاوز السبعين، ويمسك يد عمر؛ ليجس نبضه الضعيف، ثم يقيس ضغطه، فيجده قارب على الانهيار؛ فيقوم ويعود بحقنة من خليط دوائي في محاولة لإنقاذه، وبعد أن اطمئن من نقلوه لرعاية الطبيب له غادروا.....

الدكتور مصطفى محمود كان طبيبًا نفسيًا من أشهر الأطباء، ولكن كان ينتمي لمدرسة العلاج النفسي القديمة التي لا تتناسب مع عصرنا هذا، حيث أصبح العلاج النفسي بالأدوية المخربة للعقول التي تهدئ ولا تعالج....

لما فقد الأمل في استمرار مدرسته وأسلوبه اعتزل الطب، ووضع مدخراته كلها في البنك، وأصبح يعتمد على ريعها الشهري، وساعده أنه لا زوجة له ولا ولد..

فلا يعلم أحد عنه أي شيء شخصي، وقد ترهبن في محراب الطب النفسي، ووضع وقته كاملًا تحت تصرف مرضاه وجلساتهم، التي كانت تستمر

ساعات طويلة، حتى قرر الاعتزال، وأقام في نفس مكانه منذ سنواااات طويلة يساعد الناس في علاجهم المجاني، وأصبح كأنه طبيب عام....

طبيب كشكول (كانت تطلق في الزمن الجميل على الطبيب الموجود في القرى أو المدن الصغيرة، الذي يعالج كل شيء، وليس له تخصص معين).....

الدكتور مصطفى محمود رجل قصير القامة ... ظهره منحنٍ قليلًا من أحمال الزمن ... رأسه أصلع إلا من بعض الشعيرات البيضاء على الجانبين، بينهما فراغ كبير اكتسب لون الوجه الأسمر الخمري ... العيون ناعسة غائرة، والجفون مترهلة ...

الوجه كأنه يرتدي فوقه قناعًا من السليكون المحفور عليه خرائط الزمن، مترهل الجلد ذو لُغد جلدي مترهل يخفي خلفه تفاحة آدم (التي لا أعلم لماذا سميت بهذا الاسم رغم أن سيدنا آدم أول الخلق. قيل إنه أكل التفاحة، ولم يقل إنه ابتلعها)...

ساعات بطيئة مرت قبل أن يفتح عمر السباعي عينيه الغائمتين، ويحاول تذكر ما حدث، غير أنه وجد يد د. مصطفى تربت على جبهته.

- إتكتبلك عمر جديد يا بطل.

- مين حضرتك؟..... أنا فين ..... (قالها بتلعثم شديد؛ فقد ظل صامتًا شهورًا لا يتحدث إلا عندما يطلب الدليفري من خلال هاتف منزله).

- إنت عندي في البيت ... أنا الدكتور مصطفى محمود، وإنت وقعت وإنت ماشى، وكنت قريب من هنا، والناس جابوك لعندي...

- وقعت .... الناس.... (حرك يده اليمنى، وتحسس جبهته، أحس بورم صغير وألم من أثر الاصطدام).... أيوه.. أنا أتكعبلت، وأنا بقع شفت لون الخشب قدامي بعد كده مش عارف ايه اللي حصل.... بس ليه جابوني هنا ... عند حضرتك.....

- للأسف يا ابني مافيش معاك حاجة تثبت شخصيتك، ولما بلغوني خفت تجيلك الإسعاف وتكون فقدت الذاكرة؛ تضيع زي اللي بيضيعوا، وشفت إنك حد مش وش بهدلة مع إن منظرك ده وراه حاجة أنا متأكد.... أنا أصلي كنت طبيب نفسي شاطر.....

- كنت؟؟؟ حضرتك على المعاش؟؟؟..

- مش وقته .... مافيش طبيب بيطلع على المعاش.. إحنا بنفضل أطباء لغاية لما يدخلونا قبورنا... وحتى بعد.. بتلاقي اليافطة مكتوب عليها هنا يرقد الدكتور فلان ههههه..... خلينا فيك أنت دلوقتي علشان نطمن عليك..

- أنا الحمد لله حاسس إني كويس... هو ممكن أمشي من فضلك.

- لا طبعًا لازم تنتظر لما نطمن على الإغماء اللي جالك وأسبابه ... تحب تشرب حاجة سخنة.

- أوك، من فضلك شاى.

- حاضر... استريح إنت.

(أثناء إعداد الشاي تفحص عمر المكان من حوله... كان الطراز الكلاسيكي القديم هو ما يميز الديكورات والموبيليا)....

- اتفضل بالهنا والشفا... قولي بقى إحساس الدوخة لسه موجود؟؟؟

- لا الحمد لله. أنا كويس.. بس مش عارف إيه سبب اللي حصل.

- لازم تعمل شوية تحاليل علشان تطمن على نفسك.. إنت شكلك أساسًا مرهق جدًا، ومش واخد بالك من نفسك..

- تفتكر يا دكتور فيه إيه في الدنيا يخلينا ناخد بالنا من نفسنا؟؟؟...

- فيه حاجات كتير تخلينا نتمسك بالأمل في الحياة.. مش هقولك فيه حد يستاهل بس تفتكر احنا عايشين بس علشان حد أو حاجة؟؟

- يعني ايه يا دكتور مش فاهم.

- حقك عليا هو سؤال فلسفي شوية... استحملني أنا في الأصل طبيب نفسي ... قصدي إن التمسك بالحياة غريزة فطرية عند الإنسان مش مرتبطة بأسباب...تخيل نفسك وأنت في أسوأ حالاتك النفسية، وقررت إنك تنتحر وترمي نفسك في البحر مثلاً...تأكد أنك لو بتعرف تعوم هتنقذ نفسك غصب عنك...تحرُّك لا إرادي لعضلاتك وهتقاوم وهتخرج... ساعات المشاكل إلى بتقابلنا بتاخدنا للنفق المظلم.. لما بتخلص المشكلة بنكون في وسط النفق...هنا الفرق بينا وبين بعض.. مين هيعرف يرجع ويخرج من

النفق المظلم ده، ومين هيقف مش هيتحرك، ومين هيكمل انزلاق داخل النفق ومش هيخرج خالص...عارف النفق المظلم في المثال ده هو الاكتئاب.. يبقى لازم نقاوم المشاكل من الأول.. نحاول نحلها من غير ما هي اللي تحل وسطنا هههه.. ولما نحلها نخرج بسرعة، ونرجع للحياة.. لو مافيش حل ليها لازم نتعايش مع المشكلة.. بلاش نخليها تقضي علينا.... وبعدين يا سيدي كل مشكلة وليها حل... أنا متأكد إن وراك حكاية كبيرة هههههه... مش كده ولا إيه..

– أنا لازم أمشي دلوقتى...شكرًا على كل حاجة.

– طيب.. طيب.. على مهلك ... إنت عرفت العنوان .... هنتظرك.... هتلاقيني هنا على طول...أنا عايش لوحدى.

– إن شاء الله.... سلام.

خرج عمر السباعي مسرعًا وكأنه يهرب من حكايته، التي أغلق عليها أقفال عقله وطمرها في سلة قمامة ذاكرته..

يتمنى لو كان يملك خاصية مثل التي في اللاب توب الخاص به، حين يلقي بالملف في سلة النفايات، ثم يضغط الزر مرة أخرى؛ فينفي الملف خارج الهارد تمامًا....

بدأ يتحدث مع نفسه.....

هل يصل بنا العلم يومًا لينقل إلى عقل الجنس البشري هذه الخاصية الرائعة؟؟؟..

نراها في أفلام الخيال العلمي. يجلس الشخص على كرسي، ويتم توصيل أسلاك وإبر إلى دماغه، ويتم تعطيل ذاكرته بعد سحب نسخة كاملة منها.

ماذا لو امتلكنا هذه الخاصية؟.

ماذا لو استطعنا محو أحداث محزَّنة وسلبية من ذاكرتنا؟؟؟

غالبًا ما تستعيد ذاكرتنا المواقف السيئة السلبية، حتى لو حاولنا طرد هذه الأفكار فلن تدعنا وشأننا.

ستظل تطارد أذهاننا في اليقظة والمنام.

حاولت مرارًا وتكرارًا أن أتجنبها..

ولكني فشلت.. فاستسلمت للهوها بعقلي..

كأن شخصًا آخر يسكنني يتحكم في ذاكرتي..

يستعيد شريط الأفكار والأحداث السلبية..

أتوسل لمن يسكنني أن يمكنني من مشاهدة مواقفي الإيجابية.....

لربما يسعدني الحظ ويقرأ ما أكتبه؛ ويرق قلبه لحالي، ويتركني لحالي ...

فقط أتركني من فضلك، وسوف تتوقف هذه الأفكار المدمرة...

***

عاد السباعي لمنزله، وتقوقع على فراشه متحسسًا مكان الاصطدام، ووضع مخدته على رأسه، واستسلم لنوم عميق، وظل متقوقعًا كطفل صغير.

حتى انتفض جسده بعد أن شاهد نفس الكابوس المتكرر.

لياليه جميعها متشابهة، ومشاعره لم تتغير رغم مرور الأيام والليالي...

الوحدة أفضل مما كان يعيش فيه.

فلم تكن حياة بمعناها الحقيقي فقد كانت وَهْمًا يعيشه...

أوهامًا يبنيها على الرمال ...

حلمًا زائفًا نال من عمره سنوات من أجمل سنوات الشباب ...

كلما أراد أن يتذكر ما حدث..

يعود فيبحث لنفسه عن فكرة تلهيه عن ماضيه... يكاد يجن..

ربما لو تأنَّي لكان الآن أسعد حظًا وحالاً مما هو عليه...

بعد يومين تذكر الدكتور مصطفى محمود وقرر زيارته، ولكن هذه المرة قام بتهذيب لحيته، وارتدى ملابس مناسبة أنيقة وتعطر، ثم انطلق في طريقه..

أمام الباب تردد قليلاً، ثم دق ثلاث دقات على الباب الخشبي دون أن يرن الجرس في محاولة منه للهروب من الزيارة بعد أن جاء بأقدامه إلى مقر إقامة الطبيب....

فتح الدكتور مصطفى محمود الباب، ولم يفاجأ؛ فقد كان بخبرته يعلم أن السباعي سيزوره إن آجلا أو عاجلا...

- أهلاااااااا يا عمر.

- أهلا يا دكتور.

- أنا كنت متأكد إنك هتشرفني قريب.. عامل إيه...تشرب حاجة سخنة ولا حاجة ساقعة.

- لا مالوش لزوم... أنا هستأذن.

- الله.. إنت جيت في إيه وهتمشي في إيه... إحنا لازم نتكلم شويه مع بعض..

- لا أنا أصلا مش عارف جيت هنا ليه.. اعذرني يا دكتور.

- يا عمر، أنا زي والدك... مالك متوتر ليه..؟ ممكن تقعد نتكلم شوية.

- حاضر (امتقع وجه عمر احمرارًا، وزاغت عيناه، وبحكمة الطبيب لم يركز د.مصطفى نظره على عمر في محاولة منه لتهدئة جو اللقاء).

- احكيلي بقى يا عم قصتك.... واعتبر سرك في بيررررررر.

- بص يا دكتور، أنا جيت إسكندرية علشان أنسى مش علشان أفتكر... أنا كل يوم بتعذب.. الأفكار اللي بتدور في دماغي بتجننى.. مش عايز أفتكر.

- ما هو ده مش حل على فكرة... الحل الوحيد إنك تحكيلي، وانا هقولك تعمل إيه...عجبك الكلام أوك... لو ماستريحتش خلاص ماخسرتش حاجة.

- تفتكر كده صح؟

- أيوة.... اهدي أنت بس، وتوكل على الله وقول.

- أقول إيه يا دكتور .... مش قادر أتكلم دلوقتى.

- أمال جيت ليه....أنت عايز تخرج من همومك وأحزانك ...وعقلك الباطن هو اللي جابك هنا .... علشان كده لازم تساعد نفسك، وتساعدني علشان أقدر أساعدك..

- مش قاااادررر (انهمرت دموع كالشلال تسقط من عينيه، وكأن سيلاً حجزته صخور الجبال، ووجد مجرى؛ فانهمر يشق طريقه محطمًا كل ما يقابله، وحفر ممرًا في وجهه؛ حتى تساقطت الدموع؛ فابتلت الأرض من تحته وكأنه بال على نفسه)....

- المرأة..... ابحث عن المرأة.....

- أرجوك يا دكتور.... أرجوك.

- امشي يا عمر .... ولما تكون جاهز تعالى... هتلاقيني مستنيك...

غادر عمر مسرعًا، ولم يلتفت خلفه، ولم يلقِ بالتحية عند المغادرة، بل لم يغلق الباب من خلفه....فقط غادر...

أحيانًا تكون المغادرة هي أحد الحلول السهلة، ولكنها أقبح الحلول....

المغادرة هروب من المسئوليات ... هروب من الواقع ....

الواقع لا مفر منه .... الواقع حقيقة سنعيشها سواء هربنا منه أم واجهناه...

المواجهة قوة...المواجهة شجاعة...

الهروب جبن...الهروب خوف... الهروب إلى أين؟؟..

الشجاع يموت مرة واحدة.... الجبان يموت مع كل موقف.. مع كل مواجهة...

المشكلات كالمعارك تحتاج الشجاعة والصلابة والقوة والمواجهة والتخطيط أيضًا... وأحيانًا المرونة..... الهروب من مواجهة مشاكلنا لن يحلها، بل سيزيدها تعقيدًا...

هناك مثل شعبي يقول: (وقوع البلاء ولا انتظاره).. الإشارة واضحة جدًا..

تقدم واذهب حيث مركز مشكلتك وواجهها، ولا تنتظر قدومها؛ فتتأخر وتخسر كثيرًا..

أما إذا كنت متأخرًا فبادر بالزحف نحوها، ولا ترتد للخلف ...

المثل الإنجليزي يقول: (أن تصل متأخرًا أفضل من ألا تصل أبدًا)...

الدعوة لمواجهة المشاكل ليست دعوة انتحارية، بل هي دعوة للحياة أو بمعنى أصح لإعادة الحياة المسلوبة....

فمازالت عقولنا سجينة الأفكار السلبية التي أفرزتها مشاكلنا...

النجاة في وضع أكثر من خطة وسيناريو لمواجهة المشاكل والتفكير في أكثر من حل..

النجاة في إجهاض السلبية من تفكيرنا وزرع بذور إيجابية مشرقة تعطينا الأمل ولا تحبطنا..

الإحباط والاستسلام لهزائم مشكلاتنا يصيبنا بالاكتئاب ...

يفقدنا الشعور بالحياة ... يكفننا بأحزانه ومازلنا نتنفس ...

إنه يكتب حروف النهاية...

***

خرج عمر وعبر الكورنيش، وسار حتى نهاية اللسان الموجود على شاطئ جليم، ووصل عند صخوره المنحورة، وجلس على حافتها، والأمواج صاخبة من حوله وكأنها غاضبة...

غاضبة منه... أو عليه... غاضبة من شيء ما....

ارتفعت وصهلت كالخيل، واستدارت وسقطت كالأمطار الغزيرة؛ فغسلته....

طهرته....

أزاحت عنه كابوسه اليومي ...

ألصقت ملابسه في جسده؛ فأصبح عاريًا تستره السماء بظلامها...

همهمات وهمسات بعيدة تقترب...

صوت رخيم وجملة تتكرر.....

أين سمع كلمة (المواجهة قوة، والهروب ضعف)....

صوت من تحت الماء يناديه .....

ها هو يكررها... المواجهة قوة، والهروب ضعف.....

وضع يديه على أذنيه محاولًا تفادي الصوت.. الصوت يقترب ...

أتراه أحد الملائكة يغوص بجناحيه في الماء، ويتمتم بهذه الكلمات...

الصوت يقترب، والموج يرتفع، ولا أثر للملاك.....

أيكون جنيًا يسكن أعماق البحر ...

ربما كان على بعد أميال، ويوجه رسالته ... رسالة من عالم آخر...

ولِمَ لا؟! فهو جني، ويستطيع فعل أكثر من ذلك...

ألَم يحدثنا كتاب الله أن عفريتًا من الجن وعد النبي سليمان أن يأتيه بعرش السيدة بلقيس قبل أن يقوم من مقامه.....؟!

مازال الصوت يقترب مرددًا نفس الكلمات.....

جسده يرتعد خوفًا أو شغفًا لمعرفة مصدر الصوت..... يقترب..... يقترب.....

الصوت يهمس في أذنيه...

من يهمس لنا هو الشيطان الرجيم هكذا أفهمونا...

لكنها كلمات إيجابية، والشيطان يريدنا عُصاةً، ويأمل أن يقذف بنا إلى نار جهنم...

إذًا ليس الشيطان.... ليس ملاكًا ولا شيطانًا، تُرى من هو إذًا ؟؟....

يد تربت على كتفه؛ فيستفيق ويلتفت، يجد الدكتور مصطفى محمود يقف خلفه، ويهمس (المواجهة قوة... الهروب ضعف..) ...

***

(٢)

المشهد مرتبك في حدائق الأهرام، شارع الثروة المعدنية يشهد ولأول مرة منذ إنشائه جريمة قتل فظيعة...

حريق كبير التهم محتويات الدور بالكامل..

بقايا قطع لحوم آدمية. تم تشوية الجثث تمامًا....

لدرجة تقطيعها لأجزاء صغيرة ودمجها معًا مع تشويه كامل للرؤوس...

العقار رقم ٢٢٥٠ الدور الثالث الشقة رقم ٣٣، كان قبل قليل يقطنها المهندس عاطف يحيى وزوجته ناني جمال ربة المنزل الجميلة خريجة الفنون الجميلة، وطفلاهما سيف ورغد....

الآن يطوف حول سطح العقار سرب من الغربان السود.....نذير شؤم وخراب.....

لماذا ننعت الغراب بأبشع الصفات؟؟؟

لماذا نقرن وجوده بتوقع حدوث مكروه؟؟؟.

رغم وجوده في أشجار النوادي والأحياء الراقية....

رغم أن الغراب هو أول من علم الإنسان كيف يواري سوءة أخيه.....

علمنا أن ندفن موتانا في التراب.....فنحن من التراب، وإليه نعود يومًا ما...

الغراب مظلوم ... الظلم ظلمات ...

مثله مثل الكثيرين من المظلومين، الذين لا يسلمون من حدة ألسنة مجتمعنا....

أحيانًا نَصِفُ بعضنا بما لا يحملونه من صفات، سواء بالمدح أم بالذم....

أحيانًا لا نكون منصفين.....بل غالبًا.....

الشارع مزدحم بسيارات الشرطة والإسعاف، وجمهور من المواطنين يمثلون دور المشاهدين، وهذا أمر واقع في مجتمعنا....

الجمهور يتجمع مع كل موقف يحدث...

حادثة على الطريق تجد الاتجاهين قد أغلقا، وتعذر وصول سيارات الإسعاف من الاتجاهين؛ للازدحام الناتج عن تجمع المارة حول المصابين في محاولة للمساعدة، لكنها كثيرًا ما تتحول لمشاهدة المصابين وهم يتألمون وربما يموتون خنقًا لعدم توفر هواء من شدة الزحام حولهم ...

كذلك السيارات من الاتجاهين تبطئ جدًا؛ لاختلاس النظر ومشاهدة نفس المنظر؛ مما يترتب عليه تأخر وصول الإسعاف، ونسبة كبيرة من وفيات الحوادث تتم لعدم وصول الإسعاف في الوقت المناسب....

....هذا هو الواقع الجميل المر.....

رجال المباحث الجنائية يحصلون على الأدلة من موقع الجريمة الغامضة.....

رجال المباحث يستدعون الجيران والأقارب للسؤال.....

المكان وكأنه خلية نحل.... الكل مشغول في وظيفته.....

الجثث في أماكنها، وبمنظرها الرهيب توحي بانتقام شرس، وكأن القاتل يرسل رسالة غامضة بهذا المنظر المرعب.....

همهمات ومصمصة شفاه وثرثرة وهمزات ولمزات من هنا وهناك، بعضها يخوض في سيرة ناني، والآخر يدعم ويصف سوء أخلاقها.

الجريمة بشعة....

بعثرة محتويات الشقة وتكسير أرفف الدواليب وكل الأدراج يوحي بأن الدافع الأول هو السرقة.

لكن حتى لو كان الدافع السرقة فما الداعي لهذا الكم من العنف بعد القتل... ثم الحرق...؟!! المشهد يوحي بالانتقام الشرس...

لم يكن لعاطف وناني أي أعداء؛ فقد كانا مسالمين جدًا، وأسرتهما في حالها.

رغم بعض الخلافات التي قد تطفو على السطح، ويسمع الجيران صداها من غيرة عاطف عليها في أثناء عرض أعمالها الفنية.

فقد كانت تميل إلى الفن التجريدي، وهناك من يشتهيه.

عاطف كان يرفض رسوماتها، ويصفها بالجريئة، وهي تقاوم وترسم وتعرض وتبيع. ويستسلم عاطف أمام ما تدره ثمن اللوحات من أموال تضاف إلى رصيد الأسرة، فعمله مهندسًا مدنيًا في إحدى الشركات بالقرية الذكية لا يعطيه الراتب الذي يسمح بتغطية مصروفات المنزل والدراسة للطفلين؛ وبالتالي كان يرضخ لرغبة ناني في إظهار مهاراتها وموهبتها الفنية.

هناك في الإسكندرية أمام كلية الفنون الجميلة بجليم.

تعرف عليها ...

كانت تنتظر الترام بعد انتهاء يومها الدراسي ...

كان يعبر الطريق بالصدفة، وقعت عيناه عليها، فأدهشته بجمالها الفتان ...

فاقترب وتلاقت العيون. لم ينطق بكلمة.

ظل صامتًا يراقبها حتى ركبت الترام ...عربة السيدات ...

قفز في العربة التي تليها، وظل يراقبها، حتى نزلت في محطة سبورتنج أمام بوابة النادي السكندري الشهير الذي يحمل نفس الاسم.

تتبع خطواتها.

دخلت العمارة المجاورة لمطعم دهب الفطاطري. لقد كان يعشق فطائره.

أه لو كان يعلم بوجودها هنا لكان جعل كل وجباته فطائر.

هو لا يعلم عن عائلتها شيئًا ... فقط أُغرم بها ...

انتظر نزولها ساعة. ساعتين. ثلاث ساعات.

أحس بالإرهاق؛ غادر وعاد لمنزله.

في اليوم التالي ذهب لمحطة الترام المواجهة لمنزلها، ومن الصباح الباكر ظل منتظرًا إطلالتها، وحدث ما كان يتوقعه، فقد طلت بوجهها المشرق المستدير كالقمر في منتصف الشهر العربي.

ملامحها المصرية مع لون بشرة يميل للبياض الأوروبي وعيونها العسلية أذابت قلبه الصغير النابض؛ فهام في حبها قبل أن يعلم عنها شيئًا.

أهمل كليته، وظل يتابعها أسابيع، ينتظرها صباحًا، ويوصلها بنظراته حتى باب كليتها بجليم، وينتظرها في أثناء عودتها؛ فيودعها بسهام عينيه، حتى تدخل منزلها.

كانت تلاحظه، ولا تعيره انتباهًا.

حتى فاجأها يومًا، ووقف أمامها، وأعطاها ورقة مطوية، واختفى....

عادت لمنزلها، وما إن دخلت غرفتها، وأغلقت الباب خلفها، حتى فتحت الورقة المطوية، وكانت تعتقد أنه ترك لها رقم تليفونه أو اسمه، ولكن كانت الورقة فارغة ...

ظلت تقلب فيها وتتفحصها؛ لعل بها ما يفك هذا اللغز، ولكنها لم تجد شيئًا.

طوتها وضحكت، وقالت في سرها: (ده طلع مجنون) ...

لم تكن تعلم أنه بالفعل مسه جنون عشقها، وتدروش في سحر عينيها...

انتظرت أن تلمحه كما كانت في الصباح والمساء، ولم يظهر؛ فاحتارت في أمره...

أسبوع مضى دون أن يظهر، حتى أنها أصبحت تبحث عنه بعينيها في كل مكان.

في اليوم الثامن فاجأها بمقابلة كسابقتها، ودس في يدها ورقة بنفس حجم سابقتها ولونها، وكادت تمسك بيديه لتسأله..... من أنت؟؟ ...

ولكنه اختفى فجأة كما ظهر فجأة.

عادت وفتحت الورقة، فوجدت رسومات هندسية ...

وضعت الورقة مطوية مع سابقتها في درج مكتبها العلوي، وقد أصابتها الدهشة من تصرفه هذا.

يعطيها ألغازًا غير مفهومة....

انتظرت يومين حتى ظهر مجددًا، ودس الورقة الثالثة.

لما فتحتها وجدت اسمه مكتوبًا وسط دائرة متوسطة الحجم يحيط بها مثلثات متساوية الأضلاع.

وبعد اختفاء أسبوع ظهر، ودس الورقة الأخيرة، وكانت كما توقعت فيها رقم تليفون.

- ألو، مساء الخير.

- مساء النور. مين؟

- أنت اللي مين. أنت لغز كبير، أنا عايزه أعرف أحله.

- ليه كدة أنا حد سهل جدًا.

- هو إيه موضوع الورق ده. أنا مش عارفة ليه قبلت إني أخده منك.

- أنا كنت متأكد أنك هتاخديه، وتهتمي بيه جدًا.

- يا سلام!! وإيه الثقة دي!! جبتها منين؟! هو أنت تعرفني أصلًا؟!

- تصدقيني لو قلتلك أنا شفتك من أسابيع وكأني أعرفك من سنين.

- لاااااااا أنا الظاهر كنت بفكر صح لما قلت شكلك كده حد مجنون.

- طيب ما أنا فعلًا مجنون. عارفة أول لما شفتك أتجننت بيكى. بقيت زي اللي راكبه جن، أقصد جنية.

- يا ساااااااتررررررررر بلاش والنبي السيرة دي؛ أنا بخاف.

- أنتي اسمك إيه؟

- ناني، يا عاطف.

- طيب عرفتي معنى الورقة الأولى والتانية؟؟

- لأ. حاولت بس كان لغز صعب، الأولى فاضية خالص، والثانية أشكال هندسية.

– والثالثة اسمي جوه دايرة عليها مثلثات ... طيب هقولك. الأولى بقولك أنا صفحة بيضاء، ومحتاجك تكوني أول سطر فيها.

– واووووووووو جامدة دى.

– التانية بقى بقولك أنا بدرس هندسة. التالتة بتأكد التانية. شفتي بقى بسيطة إزاى.

– أنت حكاااااااية. بس هو أنت تعرف عني حاجة؟

– أعرف أنك جميلة وسحرتيني من أول نظرة ...

– طيب أنا معرفش عنك حاجة خالص ...

– طيب لما نتقابل نتكلم ... إيه رأيك أعزمك على أكلة ترمس جامدة لما تخلصي الكلية بكرة، وأوصلك مشي من على الكورنيش ...

– قلتلك أنت مجنون ...

– وهتجنن أكتر لو رفضتي العزومة ...

– هههههههه ... مااااااشي ... بكره هخلص الساعة أربعة بعد الظهر نتقابل عند محطة الترام اللي قدام الكلية، ونتحرك على الكورنيش ...

– ماشي الكلام، وأنا هروح أبيت من دلوقتي على محطة الترام ... مش هقدر أستني لبكره ...

– هههههههه ... مجنووووون ... مجنون رسمي

***

لم يكن يعلم عنها شيئًا، وهي لم تصارحه بوضعهم الاجتماعي ...

فقد طلق والدها والدتها وهي صغيرة للشك في سلوكها وكثرة خروجها دون إذنه.. واحتدم الخلاف بينهما يومًا؛ فطلقها واختفى من خريطة حياتهما...

كانت أمها تعتمد في معيشتهم على معاش والدها، ورغم أنها لا تعمل فإن مصروفاتهم تتعدى أرقام المعاش بكثير ...

لم تكن ناني تهتم من أين تأتي الأموال ...

اهتمامها الوحيد كان كيف تنفق الأموال على ملابسها ومظهرها ومكياجها ونزهاتها مع صديقاتها، وكيف تكون هي صاحبة الكلمة والصولجان بينهن...

كانت تعشق التحكم والسيطرة ...

ربما ما عانته في مرحلة انفصال أبويها جعلها تحاول جاهدة أن تكون قوية... متحكمة ... شرسة ...

في المقابل كان عاطف من سكان منطقة باكوس الشعبية، من عائلة فقيرة بالكاد تجد قوت يومها ...

يوميًا يركب (المشروع) من باكوس إلى جليم بجوار كلية الفنون الجميلة، ثم يركب مشروعًا آخر من جليم على الكورنيش حتى الكلية ...

كان من الممكن أن يذهب للكلية بالترام مباشرة، ولكنه يعشق البحر...

اليوم الذي لا يراه لا يحسب من عمره ...

حتى أن عادته اليومية ساعدته في التعرف على حبه الجديد الوحيد ...

كان يكد ويعمل في الصيف؛ ليوفر مصاريف الكلية ومصروفات رحلته اليومية على كورنيش بحر الإسكندرية.

من ضمن أحلامه الكثيرة أن يرتقي بمستواه الاجتماعي، وقد وجد ضالته في حبيبته ناني التي تسكن أمام نادي سبورتنج ...

من يخجل من مكان سكنه أو ملابسه أو أسرته ... يخجل من نفسه ... هو عار على المجتمع ... المستوى الاجتماعي ليس بالمفهوم الضيق لدى الكثير من الناس ...

من يملك المال والجاه والحسب والنسب فهو من المستويات الراقية اجتماعيًا...

لِمَ لا ننظر لمن اجتهد وكد وتعب ودرس وتطور ونجعله على قمة المستَويات الاجتماعية ...؟!

لماذا لا يكون مقدار الاحترام والأخلاق والمبادئ والقيم والسلوكيات الحميدة هو المعيار الحقيقي للمستوى الاجتماعي ...

كان لعاطف صديق، تتلمذا معًا في المدرسة الثانوية ...

نجح وحصل على مجموع يؤهله لكلية العلوم، وكان يرغب في أن يكون طبيبًا...

هذا الصديق التحق بكلية العلوم، وفي نفس العام أعاد امتحان الثانوية العامة ...

المفاجأة أنه نجح بتقدير مرتفع، وكذلك حصل على مجموع في امتحان الثانوية يؤهله لدخول كلية الطب ...

هذا العبقري يسكن هو ووالدته الممرضة وأخته في غرفة بالدور الأرضي في عقار قديم، والحمام مشترك بينهم وبين الغرفات الكثيرة الموجودة بنفس الدور ...

هذا العبقري غرفتهم لا يوجد بها سوى سرير واحد، تنام عليه والدته وأخته، وهو ينام على الأرض، وترابيزة صغيرة تلبي كل الاحتياجات، فهم يستخدمونها بدل سفرة الطعام وقت الأكل، وبدل المكتب وقت المذاكرة، وبدل ترابيزة المطبخ وقت الطهي، وعلى جانب الحائط يوجد حوض صغير بحنفية مياه نحاسية، وبجوار الحوض أنبوبة صغيرة تعمل بدلًا عن البوتاجاز...

هل بعد أن يتخرج ويعمل هذا العبقري نصنفه أنه من قاع المجتمع لظروفه المادية أم ننظر لعبقريته وشهاداته وصموده، ونشير إليه بأنه فخر لأعلى هرم المستوى الاجتماعي...

الحقائق مغلوطة، أو ربما هي مثل القوانين في العصور القديمة قد وضعها الأقوياء؛ ليسيطروا بها على الضعفاء، هذا ما درسناه من علم الفلسفة الذي أبحر فيه الفيلسوف اليوناني سقراط وتلاميذه من بعده ...

يجب أن نتغير حتى نتقدم ...

البحث عن الذات ... البحث عن النجاح ... البحث عن التفوق ...

كلها كلمات تتحول إلى أفعال تؤدي في النهاية للارتقاء بمستوانا الاجتماعي ...

أما عاطف فكان موهومًا بقدرة ناني وأسرتها على انتشاله مما يتبرأ منه ... ويراه مستنقعًا يخفيه عن أصدقاء الدراسة في الكلية، ولكنه بالطبع لم يستطع إخفاءه عن حبيبته التي ضمته لصدرها الحاني، ووعدته بتغيير مجرى حياته...

لكن بشرط أن يسمع كلامها، وسوف تهتم بإعادة تأهيله وتشكيله؛ ليتناسب مع مستواها التي تعيش فيه ...

لم يهتم كثيرًا بتفاصيل أسرتها والبحث عن أسباب انفصال والديها أو مكان والدها ...

لم يفاتحها أساسًا في مثل هذه الألغاز المخفية ...

كان يخشى غضبها ..... اعتبرها نعمة كبيرة قد ساقها القدر إليه ...

في نفس الوقت كانت ناني تجد ضالتها في هذا الشاب الوسيم المنبهر بجمالها وبمكان سكنها، ويرضخ لكل كلمة أو طلب تطلبه ما عدا الطلبات التي تحتاج مصاريف طبعًا؛ لضيق ذات اليد عنده، وهي تعلم ذلك تمامًا، وكل ما يهمها أنه وسيم ويحبها ومطيع ...

كذلك لن يجرؤ على الخوض في ماضي أسرتها، وهو المهم عندها ...

ستبدأ حياة جديدة، ومن أول السطر، وتمحو ما سبق وكأنه لم يكن ...

إذًا اجتمعا دون أن يعلم كل منهما ما يخفيه الآخر من رغبة البحث عن بداية لا يكون لها أحداث سابقة ...

فقط بداية وكأنهما آدم وحواء العصر الحديث ... هكذا توهما ...

توالت المكالمات والمقابلات، وأصبح طريق الجيش (كورنيش الإسكندرية) هو طريق عودتها من الكلية سيرًا على الأقدام من جليم مقر الكلية حتى سبورتنج حيث منزلها بمرافقة عاطف.

أمواج البحر شهدت مولد قصة حب سكندرية حالمة.

توجت بالزواج بعد أن أنهيا دراستهما، واتفاقهما أن أحوالهما العائلية لن تكون عائقًا لتحقيق أحلامهما ...

تم تعينه في القرية الذكية على مدخل طريق القاهرة الإسكندرية بإحدى الشركات بمرتب بسيط ...

يكاد يكفي إيجار شقتهما التي استأجراها في منطقة حدائق الأهرام، وأكلهما وشربهما اليومي مضافًا إليه رحلة في نهاية كل شهر لزيارة أهلهما بالإسكندرية...

***

(٣)

- د. محمود، أنت خضتني، أنا ماكنتش عارف مين اللي بيقول الجملة دى.

- هو أنت ليه بتقولي محمود. يا اااابني اسمي مصطفى.

- تفرق كتير يا دكتور؟!! ما هو اسم حضرتك مصطفى محمود. مش فارق بقى. ساعات الناس بتقف عند حاجات بسيطة وتسيب الأهم.

- إزاي يعني؟

- يعني ممكن تسيب الموضوع الأساسي والأحداث المحيطة، وتتشعبط في لقب زي أستاذ ومهندس ودكتور ورتبة ظباط وبيه وباشا وحاجات لا بتقدم ولا بتأخر، بس في الآخر بتضيع لب الموضوع، أو بنتربس دماغنا على حاجات تافهة.

زي مرة حضرت نقاش حاد جدًا بين اتنين أصدقاء، واللي مايعرفش أن روحهم في بعض يقول هيمسكوا في خناق بعض ...

تخيل النقاش والحوار الكبير الطويل ده كان على أيه ...

الدكتور بيقول للظابط المفروض لما تطلعوا معاش ماحدش يكتب رتبته على أي يافطة، أو ما يقدمش نفسه ويقول رتبته قبل اسمه ...

رد الظابط قاله طيب وحضرتك لما بتعرف الناس على نفسك بتقولهم إيه؟! مش بتقول الدكتور فلان، ولما هتطلع معاش من وزارة الصحة هتحط على يافطة عيادتك إيه مش الدكتور فلان ...؟!

طيب بلاش هو الرقم القومي بتاعك، ودي وسيلة التعريف والتعارف عليك الموثقة من الدولة، مش مكتوب فيها الطبيب، والظابط كمان مكتوب في الرقم القومي رتبته، كمان ضابط في كذا ...

إذًا ده تعريف مقترن بالاسم، شيء مايزعلش ...

يرد يقوله: بس كده بتخوفوا الناس لما تدخل تقول أنا فلان وقبله الرتبة...

يرد عليه دي مشكلة اللي يخاف، لكن الراجل بيعرف نفسه مش قصده يخوفك، وأصلًا يخوفك ليه وعلشان إيه ...

تخيل يا دكتور مصطفى أخدوا وقت طويل، وطبعًا في النهاية ضحكوا وكملوا حوارات عادية ...

بس شوفت بقي، ساعات بنقف عند حاجات غريبة وعجيبة، لا هتقدم ولا هتأخر حاجة ...

مش المثل بيقول: (بتيجي في الهايفة وتتصدر) هي دي بقى الهايفة ...

– كل ده علشان قلتلك اسمي مصطفى.... يا سيدي قول اللي أنت عايزه هههههه.

– أنت بتضحك يا دكتور !!!

– أيوة بضحك، وعايزك أنت كمان تضحك. أنت عارف أنا جيت وراك ليه؟!

– ليه؟!

– لأني متأكد أنك بتستسلم لحاجة أنت مش عايز تواجهها، وقلقت تاخد قرار سلبي.

– أنا فعلًا كنت بفكر...

– تنتحر. صح.

– مين قالك؟ هو أنت دخلت جوه عقلي ولا إيه. هو إيه حصل وأنا مغمى عليا عندك. أنت مين يا دكتور؟

– ما حدش قالي حاجة ولا عملتلك حاجة، بس أنت نسيت أني في الأصل طبيب نفسى. يعني حاولت أحلل شخصيتك من خلال شكلك وطريقة لبسك وكلامك وحركات جسمك.

– إيه ده يعني اللي بيقولوه صحيح إن حركات الجسم أثناء الكلام ليها تفسير للشخصية...

كان فيه كتب كتير نزلت عن موضوع (لغة الجسد).

بس أنا ما صدقتش الكلام ده... زي لما بيقولوا فيها اللي بيكلمك لو ما بصش في عينيك يبقى احتمالات كدبه كبيرة...

طيب ولو هو بطبعه خجول ومابيحبش يبص لعيون الناس وهو بيكلمها يبقى كل كلامه كدب...

الموضوع نسبي بالنسبة ليا ... يعني كل واحد وله طريقة كلامه وإشاراته ... المفروض نحلل كل شخصية لوحدها على حسب تصرفاتها، لكن مش على أساس العموم ... صح كده يا دكتور ولا أنا عمال أخرف ...

– صح كده وحاجات كتير تانية. أنت شكلك كنت بتقرأ علم نفس برضه.

– شوية كده. كنت مهتم أقرأ فلسفة وعلم نفس. الفلسفة شدتني من معناها.

- طيب ومعناها إيه بقى؟

- بتختبرني يا دكتور. ماشى. هي البحث عن الحقيقة.

- فعلًا ده أبسط تعريف للفلسفة. هي البحث عن الحقيقة. بس يا ترى لقيتها؟

- هي مين؟

- الحقيقة.

- الحقيقة أن الحقيقة نفسها الوحيد اللي يعلمها هو الله ... كلنا بنجتهد وبندور وبنعافر ...الموضوع مش سهل ...

كل لما تدور على حقيقة، وتقرب توصل لها بتلاقي نفسك بتجري ورا فروع منها، لازم تتحقق من حقيقتها وهكذا ...

إيه رأيك توهتك وأنا عايز أعرف كلمة الحقيقة ...

تخيل بقى أنا مش لاقي نفسي أساسًا. أنا مش عارف أنا مين؟!... يبقى هلاقي الحقيقة!!!...

- الحقيقة الوحيدة في الكون هو الله ... والحقيقة اللي أنا متأكد منها دلوقتي أنك عمر السباعي...

اللهو الخفى. اللغز المحير. أنت علامة استفهام كبيرة يا عمر ...

- طيب الحمد لله إنك دكتور كبير وبتأكد أني لغز وعلامة استفهام... لأني أنا شخصيًا مش فاهمني ...

مشاعري متلخبطة ... أفكاري مشتتة ... ماليش نفس أكلم حد ... ماليش نفس أشتغل ... ماليش نفس لأي حاجة ... كله بالنسبة ليا بقى لا شيء ...

شايف الدنيا كلها بلون واحد، مش هقولك أسود وإلا كنت انتهيت خالص ...

لكن خليها لون رمادي غاااامق ... مافيش ألوان تانية في حياتي ...

ليك حق أنا بقيت لغز كبير عايش بجسد بلا مشاعر ...

- بس كل لغز وليه حل يا أستاذ.

- الحل هو النهاية يا دكتور....

في النهاية الشاشة بتضلم. مش بيحصل كده في السينما برضه.

الفيلم يخلص يكتبوا النهاية والشاشة تضلم. ساعتها خلاااااص.

الروح تتحرر من عبودية الجسد وأدرانه. مابتصدق...

بتهرب في ثواني لما يجي وقتها... تحس أنها بتبقى متلهفة تخرج... تغادر بسرعة ... زهقت ... قرفت ... عايزة تخلص ... صدقني يا دكتور الحياة مرهقة وماهاش لازمة ... في الآخر روحنا هتسيبنا ...

أنا حاسس أن روحي بتتخبط جوايا... بتدور على مخرج ... عايز أحررها وأخلصها وأخلص.

(دفن رأسه بين يديه، وفرك شعره بأصابعه ... لحظات صمت قطعها د.مصطفى باستكمال الحوار)...

- التحرر والخلاص مش في النهاية بس. لأ ممكن كمان يبقى البداية.

- بداااااااية تاااااانى. يا دكتور نفسي في النهاااااية. تعبت من البدايات والحوارات، ونفسي أرتاح. بجد تعبت.

- لو كل إنسان فكر بنفس منطقك إن الخلاص في تحرر الروح من قيود الجسد كانت كل الناس انتحرت.

الفكرة غلط، ولازم تصحح مفاهيمك للحياة وللروح والجسد والتحرر والحرية.

- أنا مش شايف أهمية للجسد؛ لأنه كدة كدة فاني، وهيكون عدم. يعني المهم الروح؛ لأنها هي اللي هتدوم ...

أديلك مثال لو حد أتقطعت رجله أو أيده. وحطوهم قدامه.

هل هيكون حاسس بيهم أو هما حاسين بيه. لأ طبعًا.

يبقى الجسد ده مش أكتر من وعاء للروح؛ لما يتكسر الوعاء تتحرر الروح المحبوسة.

- طيب ليه ماتحررش الروح من نزوات الجسد. يعني تنقيها وتحاول هي تكون أقوى من الجسد وتوجهه للطريق الصح.

– يا سلام! أنت فاكر حضرتك إن ده سهل وببساطة كدة. أمال الشيطان بيعمل اااااايه. ده قاااعد مافيش وراه حاجة إلا أنه بيشدنا للنزوات والخطيئة والزلات.

– طيب كويس إنك فاهم. ما هو طالما فيه شيطان وفيه نزوات وخطيئة وزلات يبقى فيه مقاومة من الروح... وجهاد النفس أعلى مراتب الجهاد. وبعدين فيه رحمة ربنا سبحانه وتعالي وغفرانه.

– رحمة وغفران. تفتكر إحنا نبهدل الدنيا، ونعمل كل حاجة غلط، والجسد يجبر الروح المسكينة على فعل المعاصي، وبعدين تيجي العين تنقط نقطتين، والقلب يرجف، وندعي بلسان كان هو نفسه بيعمل الغلط من ثواني، وتفتكر ربنا يرحمنا ويغفر لنا؟!. ازاااااي بس.

– ومين قال إن الجسد هو اللي بيجبر الروح ... يمكن الروح هي اللي بتجبر الجسد..

أو كائن تاني خفي بيقاوم الروح جوه الجسد هو المسئول عن الإجبار ده...

هو مش الروح دي علمها عند ربنا، يعني لو ربنا عايزنا نفهم عن الروح كان فهمنا في القرآن الكريم أو في الإنجيل أو التوراة ...

أو كان أوحى بكل تفاصيلها للنبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم...

يا أخي، أنت واخدنا في سكة حوار ممكن يخرج من الفلسفة، ويدخل بينا في الروحانيات والأديان.

بس في كل الأديان ربنا رحمته بتسع الجميع، وهو غفور رحيم، هو مش الفاتحة بتبدأ بـ"بسم الله الرحمن الرحيم". وفي سورة الزمر مش بيقول: (لا تقنطوا من رحمة الله) لآخر الآية ...

هو ليه أنت متشائم كدة؟ حتى النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التطير اللي هو التشاؤم.

- مش قادر تفهمني إنت يا دكتور. المهم خلاااص، اتطمنت عليا، وخلتني أرجع عن اللي في دماغي. عايز مني إيه؟!...

- عايزك تقوم معايا، ونرجع البيت عندي، ونتكلم براحتنا هناك.

- مااااااشى

***

(٤)

الحياة صعبة، وناني وعاطف يقاومان من أجل حبهما وأيام الترام والكورنيش...

بالكاد يستطيعان توفير تكاليف المعيشة في القاهرة الكبرى....

القاهرة هي بالفعل قاهرة ..... قاهرة لأعدائها..

القاهرة قلب مصر النابض الصاخب ...

قاهرة لمن يدخل عالمها وهو غير مستعد...

هكذا كان حال الزوجين...كل همهما أن يرتبطا بخاتم الزواج..

لم يحملا هم القادم والمستقبل..

وهذا حال الكثير من الشباب..

يتطلعون للارتباط قبل أن يستعدوا لمعترك الحياة...

حياة صعبة يجب الاستعداد لها.... الحياة ستزداد صعوبة بعد الزواج...

الزواج ليس قصة حب أفلاطونية فقط.. الزواج مسئولية كبيرة..

في القاهرة كلٌّ بساعديه يشق طريقه الوعر ...

في الريف ربما يكون الأمر أهون...

في القاهرة ينفصل الزوجان عن أسرتيهما، ويبدآن رحلة طويلة شاقة وحدهما ...

في الريف يبقى الأمر في يد أولى الأمر؛ فيعيش الزوجان مع إحدى الأسرتين؛ فتمنحهما قبلة الحياة، وتخفف من قسوتها ...

هكذا كانوا قبل أن يتشبهوا بأهل المدينة، فيفقدوا ما كانوا يتميزون ويتمتعون به...

شمس الحب عندما تشرق تسحر العاشقين، وتعمي أعينهم عن سعير نيرانها في منتصف النهار...

من يصمد تظل الشمس شمس شتاء..

من يفقد السيطرة يتأجج لهيبها؛ حتى تصل للحظة الغروب وتليها أيام الظلام....

النصيحة اللازمة لكل من يقترب منها...

اجعلها شمس تدفئة، ولا تجعلها تحرقك... فمن يحترق بلهيبها فلن يعود...

بالكاد يستطيعون تدبير لقمة العيش البسيطة بعد أن دلهم الأصدقاء على الموقع حديث البناء وأسعار الإيجارات زهيدة رغم حداثة المباني...

الآن وقد ظهر الحمل على جسد ناني...

ضيف ثقيل سيأتي إلى الدنيا، ولا يعلم ما ينتظره، ولكنه مجبر على الوصول؛ فقد غادر محطة اللاعودة....

أمر الله نفذ فيه ....

من منا يختار زمن ميلاده وتاريخ وفاته... لا ولن نستطيع....

هنا الأمر من الله أن (كن فيكون)...

يأتي الإنسان من الظلام، ويسير في الضوء... ثم إلى الظلام يعود...

ما نحن سوى ظلال زائلة...

مع ذلك نتقاتل وننشر الشر، ونحقد ونغل وندمر ونخطط للمؤامرات، وننهمك في ملذات الحياة ومتاهاتها، ونفعل كل ما يخالف الضمائر وهي زائلة.....

مع ذكر الضمير فهو ما يبقينا نحمل لقب الإنسان...

بدون الضمير نفقد اللقب.. الضمير هو الله بداخلنا...

الإله الذي يحمينا من أنفسنا وشرورها...

ألم يقل إن النفس لأمارة بالسوء..

بالفعل؛ فالنفس لا يكبح جماحها سوى الضمير...

فإذا فُقد جمحت وجنحت بنا النفس، ويا ويلنا سنتحطم إن آجلًا أو عاجلًا على صخور شهواتنا ....

شهواتنا المتقدة دائمًا، ولكنها مسلسلة بقيود الأديان والضمير والعادات والتقاليد والأعراف، فإذا ما تحررت تسحبنا معها لأعماق الجحيم ...

الجحيم ليس نار الآخرة، ربما هذه تكون النهاية...

لكن جحيم البداية يصطلي بعد أن تنهار سدود الأخلاق، ويتركنا الضمير، ويغادر عائدًا لعرشه السماوي..

فننكوي بنيران ما نفعله.. بعد الانتهاء من الغوص في الملذات وامتطاء ظهر الشهوات ....

عندما تحين الساعة التي لا مفر منها نعود، ونناجي وننتحب ونطلب العفو والمغفرة في اللازمن....

فقد انتهى زمن الامتحان؛ ولابد من تسليم أوراق الإجابة، ويا ويلنا لو كانت فارغة ..... فارغة لن ينفع الندم على التقصير في الإعداد للامتحان؛ فقد نفد الوقت...

وها نحن نقف مكبلين بقيود غير مرئية ننتظر المحاكمة.....

المحاكمة بالطبع عادلة....

فالملك هو القاضي، وهو يملك القوة والجبروت هو مالك الكون كله، ويملك أيضًا العفو والمغفرة، أليس هو الرحمن الرحيم...؟!

ألم يجعلنا نبدأ كتابه الكريم ببسم الله من؟؟؟ الرحمن الرحيم...

إذًا هو الرحمن، وهو الرحيم ....

الرحيم سنلوذ بعطفه ورحمته، ونطلب الرحمة...

فقد أخطأنا وتغلغلت الأدران في أجسادنا، حتى تقيأتنا أرواحنا، وهربت مغادرة تستنجد بالرحمن الرحيم..

سنظل رغم ما نفعله من الأخطاء نأمل الرحمة.....

الرحمة غرسها الله في الأم مع وليدها، وهو أولى بها علينا.....

***

تفتحت أعين الوليد والأب مذهول؛ فمنذ سنة فقط كان وحيدًا لا يتحمل مسئولية حتى نفسه...

الآن يتحمل مسئولية زوجته وابنه ...

يا له من شعور غريب لا يحسه إلا من عاشه...

لحظات وصول الطفل الأول هي لحظات الصمت والذهول..

ثم قفزات الفرحة، ثم العودة للذهول...

ثم متابعة الوليد في المهد ثم الذهول....

ثم صدمات الإفاقة بمتطلباته من الرعاية الطبية والغذائية والمعيشية ثم الدراسية والرياضية...

ثم إلخ إلخ.....

كلها مسئوليات لا تتوقف، والأب مسئول، أليس هو الذكر الرجل....

الرجل ليس لقبًا مذكورًا بالرقم القومي أو ممارسة في غرفات النوم....

الحيوانات توصف بالذكر والأنثى، وتتعاشر فيمارس الذكر مهامه الجنسية، وهنا يتشابه الذكور ولكن....

الرجل وصفته الرجولة أفعال وتحمل مسئوليات وتصرفات في مواقف...

هنا الفرق بين الإنسان والحيوان.....

المسئوليات تزداد، وعاطف بدأ يفقد السيطرة على زمام الأمور التي التقطتها ناني بدهاء، وأصبحت مع الوقت هي سيدة المنزل وصاحبة الكلمة العليا...

ولِمَ لا وقد قال أحد زعماء مصر العظماء مقولته الشهيرة: (من لا يملك قوت يومه ... لا يملك قراره)...؟!

ترى هل كان عنده حق حينما قالها؟؟

أم أن كلماته كانت شعارات يلتف حولها أبناء الشعب البسطاء كعادة الشعوب في دولنا النامية، فهي تتشبث بالقشة؛ لعلها تنجو من الغرق حينما يداهمها الطوفان.

لن أستطيع الحكم عليه أو على غيره...

فقد قال أحد الزعماء الآخرين: (لنا ما لنا، وعلينا ما علينا)..

سأترك الحكم للتاريخ، فربما كان الجميع بلا استثناء يجب أن يحاكموا أمام محكمة التاريخ.

التاريخ فقط سيصدر حكمه علينا جميعًا ... التاريخ عادل إذا كُتِبَ بأمانة...

الجميع أبلوا بلاءً حسنًا في الكثير، وجانبهم التوفيق في الكثير...

لكننا يجب أن نعترف أنهم جميعًا وطنيون شرفاء مهما بلغت الأخطاء ...

مصر لم تنجب زعيمًا خان عهدها ولن يحدث.

***

ازداد نفوذ ناني بعد وصول الطفل الثاني، وكانت أنثى جميلة تشبه أمها، واستسلم عاطف تمامًا.

حولت ناني شقتهم لمرسم كبير تملأ أركانه أعمالها الفنية الجريئة جدًا..

وبعد أن كان يعترض بدأ في مساعدتها...

حصر وجود الأطفال في جزء صغير من المنزل؛ حتى لا تتشوه أفكارهم قبل أن تولد الأفكار أصلاً...

الطفل على ما تربيه ... حكمة ... مقولة ... مثل شعبي ... ليس مهمًا التصنيف ... الأهم المعنى ...

كانت الوسيلة السهلة لتحقيق حجم مبيعات يناسب المصروفات المتزايدة.

أحيانًا ما كانت تستقبل طلبات للوحات معينة، وتسعى لإيجاد الموديلات المناسبة بمقابل نسبة مئوية من ثمن بيع اللوحات، وشاركتها من لا عمل لهن، ومن وجدن أن لا مانع من مشاركة مفاتنهن وجمالهن لمن يطلب طالما يوفيهن أجورهن...

نوع من نخاسة العصر الحديث... النخاسة تظهر في صور عديدة.

أجساد تباع وتشترى...

لوحات وصور...

عمال وعاملات لا يتقاضون مقابلاً يتناسب مع حجم ما يقدمونه...

حتى الرياضة لم تسلم؛ فقد أصبح اللاعبون سلعة تروج في سوق النخاسة...

اشتركت لأسرتها في نادٍ رياضي يجمع أولاد الذوات وبناتهم، واندست بسمومها داخلهم، وزحفت كثيرًا، وغيرت جلدها مرات ومرات.

تقنع الجميلات الثريات بلوحات جريئة لأنفسهن توضع فوق سرائر غرفات نومهن؛ لعلها تعيد الشغف والرغبة لأزواجهن أو من يمتطي أجسادهن؛ فلن ترضى بمثل هذه الرسومات والأفعال إلا من كانت لديها الاستعداد للانحراف ...

المرأة خُلِقَت خجولة بريئة طاهرة نقية...حواء لم تُخلق بغية ...

كل نساء المجتمع عفيفات طاهرات محترمات يتمسكن بالأخلاق والمبادئ والقيم إلا النادرات من أمثال صديقات ناني؛ فقد فقدن كل شيء عندما طلبن كل شيء ... وكذلك الرجال.

***

عاطف يتمزق من داخله، ولكنه ضعيف الشخصية ...

لا يملك سوى راتبه الهزيل الذي يكاد يكفي بنزين سيارته ومتطلبات تدخينه الشره...

لم يكن يومًا يتصور أن هذه العيون البريئة تتنمر، وتنطلق منها شرارات الفساد تحت مسمى حماية أسرتهم من الفقر...

الفساد كلمة صغيرة كبيرة المعنى ... ليتنا نستطيع تطهير مجتمعنا من مظاهر الفساد...

مقاومة الفساد والفاسدين لن يطهرنا فقط ... بل سيعيد الحقوق لمستحقيها ...

الفساد آفة العصر ... التصدي له ومقاومته واجب وطني وشعبي وديني...

سيقاومون ويقاتلون للتشبث بما اكتسبوا بفسادهم ومفاسدهم ... لكن سينهزمون تحت أسنة رماح الحق والصالحين ...

المبادئ والقيم والأخلاق الحميدة والصدق والعدل والأمانة من صفات الصالحين ...

لو استمع لكلام من هم أكبر سنًا وخبرة...

لكان انتظر، ولم يخطُ خطوة الارتباط قبل أن يجهز نفسه...

لكنه استعجل، وهرول خلف دقات قلبه.

هام في سحر عينيها...

انهارت حصون نصفه السفلي أمام ثنيات جسدها المثيرة..

كان لا بد من غزوها قبل أن تنفجر شرايينه، وينتحر على محراب كهفها...

- مالك يا عاطف؟

- مافيش بفكر...هو اللي بتعمليه ده آخرته إيه؟؟

- هههههه يا حبيبي، آخرته تغير العربية، ونتنقل من هنا، ونشتري شقة كبيرة، وندخل ولادنا مدارس لغات، ونسافر ونتفسح وننبسط. ملعون أبو الحاجة والفقر.

- بس أحنا عمرنا ماكنا فقراء. أنا وإنتي من بيوت كويسة والحمد لله.

- أيوة يا عاطف. بس تقدر تقولي هنعيش إزاي بمرتبك ده؟

تفتكر لو الشركة استغنت عنك مثلًا هناكل إيه. طوب ولا هتأكلنا تراب.

وبعدين إيه اللي بعمله غلط. الناس عايزة كدة، وبين البائع والمشتري يفتح الله.

هو مش المثل بيقول كدة. وكل واحدة بتترسم بتاخد حقها، ومش باكل حق حد.

– طيب والستات اللي انتي بدأتي تجيبيهم من النادى. دول اااااايه. أنا خاااااايف.

– لاااا ماتخافش. كل واحدة فيهم جاية وهي عارفة بتعمل إيه وبإرادتها.

شايفة جسمها حلو، وعايزة تبروزه على تابلوه فوق سريرها.

ذكرى للحاضر والمستقبل قبل مايكرمشوا يا بنى.

– أيوة أنا مش معترض. لكن لو حصلت مشاكل أنا هعمل إيه؟؟

– مشاكل إيه؟ أنت جبان كده ليه؟!

على فكرة، أنا عاملة حسابي ومصورة كل واحدة وهي بتترسم عندي، ومسجلة حوارات توديهم في ستين داهية لو حد ضايقنا.

– مسجلة ومصورة. إنتي اااااايه! أنا ماكنتش متخيل أنك كده.

– مالي كدة. مش عجباك يا حبيبى. كله علشانك وعلشان الأولاد. ماتخافش أنا عاملة حسابي كويس.

- ربنا يستر يا نانى.

- تصبح على خير بقي، يا عطوفتى.

دخلت في أعماقه، ودست رأسها؛ فتوسدت صدره النابض بعنف...

استمعت لمعزوفة قلبه الذي يكاد يقفز من قفصه رعبًا وخوفًا من مستقبل لا يعلم لونه. لحظات وأصدرت صفارات متقطعة معلنة عن عمق نومها.....

لم يعد لديها ضمير يؤنبها ... اغتالته بدم بارد؛ فنامت قريرة العين، ولم تعد تبالي بما تفعل ...

المهم المكاسب والأموال والثروات، ولتذهب الأخلاق إلى الجحيم...

أغلق عينيه الساهرتين، وانتقل إلى كوابيسه المفزعة.

***

(٥)

- تشرب شاي ولا نسكافيه؟

- عندك كابتشينو كراميل يا دكتور.

- هههههه حظك يا عم موجود تحت أمرك.

- طيب عندك كاكاو.

- حيرتني يا ابني بقى هتشرب كابتشينو ولا كاكاو.

- لا هشرب كابتشيكو ... المشروب السحري.

- هههههههه بتهزر. ماشي ياااعم.

– لا والله مش بهزر. هو ممكن أدخل المطبخ أعمله. تحب أعملك معايا.

– ماشي، أتفضل.

– بص سهلة خالص، هنحط باكو كابتشينو كراميل، ومعاه معلقة كاكاو مُحلي، ومعلقة قرفة ومعلقة سكر واللبن، بس أنا بحبه باليه.

– لا لا لا أعملي باللبن.

– أوك. بالهنا والشفا يا دكتور.

– تصدق طعمه حلو هههههههه كلمة السر بعد كدة (كابتشيكو).

– هههههههههههه ماشي يا دكتور، بس أوعي تبيع السر ده لأي كافيه...

– لا ماتخافش، أبيعه إزاي مش يمكن إحنا نعمل مشروع مع بعض بعد كدة ...

كافيه صغير نسميه كابتشيكو ...هههههه.

يالا بينا بقى نقعد في الصالة نتكلم شوية.

– أتفضل.

مرت لحظات صمت ثقيلة، ارتشف الطرفان جرعات صغيرة من المشروب السحري (الكابتشيكو) رائع المذاق، وبخبرة الطبيب النفسي الصياد، فقد كان يراقب فريسته التي بدأت تستسلم وهو يصنع الكابتشيكو، ويتذوقه باستمتاع وكأن له معه ذكريات...

كان السؤال الذي يدور في ذهنه.

من هذا السباعي؟؟ وما قصته؟؟.

بشغف الطبيب النفسي الذي كان على استعداد لأن يدفع له حتى يفتح خزائن أسراره، ويرفع رايته البيضاء، ويستسلم مسلمًا جميع أسلحة الدفاعات المحيطة بعقله ولسانه.

عمر السباعي يتمنى من داخله لو يتحدث؛ فيتحرر من قيود أدمت قلبه وعقله وحولته إلى ميت حي.

لكن من ذلك الطبيب العجوز الذي سيأتمنه على حياته؟.

حياته....

نعم فأسراره تعتبر حكمًا بالإعدام ... حكمًا بالإعدام؟؟ !!

ألم يحاول منذ دقائق الانتحار؟!

إذا ... إعدام. انتحار. قتل. وفاة. المحصلة واحدة.....

الصمت المظلم واللاوعي.

لحظة اختفاء وميض ضوء الحياة.

اللحظة التي يخشاها كل البشر.

لا أستثني منهم أحدًا.

مهما قالوا إن المؤمنين لا يخشونها لصلاح أعمالهم.

أنا غير متأكد من ذلك.

فقد ورد إلينا على لسان أحد الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم أجمعين

أنه لو كانت قدمه في الجنة، والأخرى خارجها لا يأمن على نفسه.. أن يكون من ساكنيها أم سيخرجه الله منها.

ولكن من قال إن.. الموت صمت.....الصمت موت ... المعنى نسبي.

الموت ظلام مع الصمت... الصمت والظلام موت ...

ربما لأن التخدير أثناء العمليات الجراحية يدخلنا في مرحلة اللاوعي والانطفاء التي أتحدث عنها...

ثم العودة مرة أخرى، وهي إحدى صور الوفاة...

أو ربما النوم العميق بلا أحلام يشبه الموت ....

الواقع أن الأموات لم يطلعونا على سر الموت..... لأنهم ببساطة أموات.

- سرحت تاني في إيه يا عمر؟

- لا يا دكتور مافيش.

- ممكن تقولي إيه سر صنعة المشروب السحري الكابتشيكو؟ ومين علمك تشربه ...؟ أكيد وراه حكاية ...

قالها وعلق عينيه على عين عمر؛ ليتابع تغير ملامحه وضيق عينه التي اغرورقت وزرفت دمعة سريعة تلتها دمعات..

فأنهار من الدموع اختلطت بالصمت..

لم يتحرك أحدهما..

ظلا هكذا دقائق، وقد ساد صمت ممزوج بحزن شديد ظهر على ملامح عمر..

اكتست الجلسة بثوب الكآبة التي قطعها د مصطفى محمود بتشغيل موسيقى هادئة..

بدأ على أثرها السباعي في مسح دموعه بمنديل صغير قماش..

لاحظ الدكتور أنه منديل حريمي عليه نقوش وحروف..

لكنه لم يعرْه الانتباه.. عندما يحين وقته سوف يسأل عنه ...

لكنه أيقن الارتباط بين أحزانه وصاحبة المنديل، وربما كان للكابتشيكو ذكرى لحدث مهم يجمعها.

- الكابتشيكو يا دكتور كان آخر حاجة حلوة حصلت في حياتي..

مش عارف هي كانت حلوة ولا وحشة..

بس المهم أنها كانت أحسن حد بيعملي المشروب السحري.. هي اللي علمتني أشربه وأنا سميته (كابتشيكو).

بعدما شربت آخر فنجان منه ..... انتهت حياتي وللأبد.

- ألغاااااز تاااانى. ممكن تحكيلي بقى.

هساعدك ماتخافش أنا طبيب نفسي طراز قديم على فكرة. أحب أسمع وأحلل وأشاور، وبعالج بالكلام مافيش عندي أدوية.

– أنت طلعتلي منين يا دكتور؟ ليه منعتني من الانتحار؟ ليه؟

– لأنك بتهرب، وأنا قلتلك الهروب ضعف وأنت لازم تواجه. واتفقنا عند البحر. المواجهة قوة، والهروب ضعف.

– بس أنا مايهمنيش قوة أو ضعف طالما قررت أكتب كلمة النهاية.

عارف لما تاخد قرار زي ده يبقى معناه إيه؟!.

يبقى معناه إنك ميت فعلًا، أو بتموت كل يوم مليون مرة.

أنا بتمنى الموت وهو مش عايزنى. من شهور في طريقي للإسكندرية كسرت حاجز السرعة ووصلت ٢٢٠ كم/ ساعة. وبرضه وصلت.

كنت عايز كاوتش يضرب. يطلعلي حاجة في الطريق ماعرفش أفرمل. تتقلب العربية وأروحلها.

عايز أشوفها. حتى لو ثوانى. نفسي أخدها في حضني، وأعيط زي العيال الصغيرة. نفسي أشم ريحتها. ألمس شعرها. أحط شفايفي على خدودها. نفسي ترجع تانى. مش هقدر أعيش من غيرها.

– هي مين؟!

– دي حكاية طويلة يا دكتور، المحصلة أني لازم أمووووت. ماعرفتش أحميها. ماعرفتش أحميها وأنا شغلتي الحماية.

- باب النجار مخلع يعنى.

- باب النجار. باب الحداد. أنا ماستهلش الهواء اللي بتنفسه. أنا اللي ضيعتها. لو كنت معاها.. لو ماكنتش بسافر.. لو كنت صديق ليها... كانت بتخاف تحكيلى..مش عارف هي كانت بتحبني ولا بتخاف منى..

لو كنت بسمع منها ماكنش أي حاجة حصلت. كله رااااااح. كله رااااااح ...

أنا تعباااااااان.

انخرط في بكاء مرة أخرى، ولكنه أجهش وانتحب وأطال، والطبيب يتابع حركاته، ويدون في ذاكرته كل شيء.

***

(٦)

الالتزامات تزداد، ويكتئب عاطف، ويشعر بالعجز أكثر وأكثر، وتنسحب من يديه آخر خيوط لعبة الحياة ووضعه كَربٍّ للأسرة وقائد للسفينة، ويتحول كليًا لتابع يتلقى الأوامر وينفذها صاغرًا.

لم يعد يفكر. لم يعد يشعر. لم يعد يناقش.

أصبح بلا أي معنى.

ازدادت ناني شراسة وجبروتًا، وتعددت علاقاتها مع سيدات المجتمع الراقي؛ فتوحشت وتجبرت بأسماء الكبار، وهي لا تمثل لهم سوى عقلة أصبع تافهة..

هذا من وجهة نظرهم، ولكنها كانت عقلة تستطيع الوقوف في حناجرهم؛ فتمنع الهواء وترسلهم للسماء في ثوانٍ.

أفكارها الشيطانية أوحلتها في الكثير من اللوحات الغريبة المطلوبة، نفذتها والمقابل كبير، ولكنها أتقنت فن الخداع والمراوغة، وسجلت كل الأحداث بدقة.

كانت تستعيد عرض اللقطات والحوارات والفضفضات، وتستقي منها المعلومات الدقيقة عن كل سيدة سجدت تحت أقدام فرشتها وتلونت بزيت رسوماتها.

أعدت تقارير كاملة لكل حالة على حدة، وبدأت تخطط للمزيد من الشر...

توقفت عيناها على بيانات ملف السيدة مديحة سليلة الحسب والنسب صاحبة الشعر الأحمر في الخمسينات من عمرها، وتهتم بكل تفاصيل جسدها حتى أنها تبدو في العشرينات..

تحب ذلك رغبة في جذب الشباب صغير السن واستغلالهم في علاقات تروي ظمأ أراضيها القاحلة الجافة.

زوجها لا يبالي، ولا يعرف عنها سوى أنه ارتبط باسم عائلتها؛ فانطلق في السلك الوظيفي كما الصاروخ، رغم أنه لا يملك من مؤهلات التفوق سوى قرنين على رأسه لا يراهما بعينيه ولا يشعر بهما..

فلا يهمه سوى تقلد المناصب الرفيعة، وليذهب ما يذهب للجحيم.

رحمها مغلق. مظلم كالقبر.. يستقبل ولا يرسل..

تتكدس في حساباتها الأموال ولا وريث ...

تصرف بإسراف على من يقع في المصيدة ...

مصيدة شهوتها التي لا ترتوى...

تطلب من ناني دائماً رسم جسدها بأوضاع مختلفة على لوحات صغيرة وكبيرة ...

ذات مساء طلبت منها تمرير فرشاتها بألوان زيتها على جلد جسمها بالكامل؛ فتحولت للوحة زيتية نابضة ...

ناني تنتهز الفرص، وتزيد من إشعال نيران عميلتها؛ حتى تتوهج، ثم تطفئها بعد أن تحصل على توقيعها على شيك يقابل تفوق شعيرات فرشتها في تنفيذ طلبات اللوحة النابضة.

لم يكن طموح الفنانة يقف عند حد الأرقام الرباعية التي تكتب على الشيكات؛ فقد طمعت في المزيد، لماذا لا تتحول الأرقام لخماسية وسداسية؟!

فمن تأتي لتطلب يجب أن تدفع المقابل.

كان يدور بذهنها أنهن كلهن عاهرات. وحلال فيهن ما يحدث وما سيحدث.

مديحة مثلًا عندما تأتيها وتخلع ثيابها المستوردة من أرقى البيوت العالمية يلتف حول عنقها عقد ثمين يساوي الأرقام الستة التي تحلم بها.

لماذا لا ينتقل هذا العقد ليلتف حول رقبتها هي؟

سيكون أجمل عليها، ولن تشعر به ثعبانًا أرقط يعتصر حنجرتها؛ لأن سمها الزاعف سوف يحقنه؛ فيتدلى مستسلمًا؛ ليداعب وادي مجري السيل بين ثدييها. هكذا صور لها خيالها المشهد، لكنها تستفيق على صفاقة مديحة وكبريائها وهي تعاملها معاملة الخدم.

فهي تدفع، وتعودت أن تشتري بأموالها كل شيء حتى البشر.

كان لا بد أن تبدأ خطتها الجهنمية بهذه المديحة، فتكسر كبرياءها، وتدوس على وجهها، ثم تنزع عنها عقدها الثمين، وتجردها من ماركاتها العالمية، ثم تغرس إبرتها في شريانها الرئيسي، وتسحب أموالها؛ حتى تمتلئ أنبوبتها، وتضخها في حسابها البنكي، وتعاود الابتزاز مرة أخرى .....

ولكن أحلامها وأفكارها كلها ترعرعت في حدائق شياطينها، فكيف لها أن تنفذ وعد إبليسها؟!

هكذا كانت تنشغل بالساعات؛ تضع الخطط، وتعود فتمزقها خوفًا من ارتكاب الأخطاء ورعبًا من العواقب.

***

(٧)

- طيب ممكن تحكيلي أنت مين أصلًا؟

- أنا إنسان بائس. يائس. لا يستحق الحياة. طول عمري عايش حاسس إني مش عارف أنا هنا في الدنيا دي ليه. كلها كدب وخداع وغش وتعب. عمري ماحسيت إني مرتاح.

- أنت عشت طفولتك إزاى؟

- أنا ماعشتش طفولة أساسًا. أنا راجل من ساعة لما وعيت على الدنيا.

كان مطلوب مني أكون مسئول من أول يوم. والدي كان بيعتمد عليا وأنا صغير، ووالدتي كانت ضعيفة، ومعايا أختين أصغر مني. وفي يوم تعب والدي، ونقلناه المستشفى مع أنه كان رافض، وأنا أصريت كنت ساعتها في ثانوي ...

كانت أيام عصيبة مش عايز أفتكرها... سافر عند ربنا وسابني لوحدي... من ساعتها بقيت مسئول عنهم هما الثلاثة.

- رحمة الله عليه، والوالدة يعني ضعيفة صحيًا ولا الشخصية ولا إيه؟

- كل حاجة. الأمور المادية كانت مستورة. إحنا من بيت متوسط ماديًا، أصلنا من هنا في الإسكندرية. لكن نزلنا القاهرة بعد وفاة والدي؛ لأن الوالدة من القاهرة ...

كنا عايشين في منطقة الهرم أيام ما كانت المنطقة هناك فاضية، وتقدر تعيش فيها.

- وبعدين. كمل.

- من صغري وأنا قلقان علشان كدة، كنت دايمًا بقول لنفسي لازم تكون قوى. إزاي هتدافع عن أمك وأخواتك البنات وأنت ضعيف.

- قصدك كنت دايمًا خايف.

- لا لا لا يا دكتور من فضلك. عمري مابحب أسمع الكلمة دى.

- هي عيب ولا إيه؟! أي حد في الدنيا بيخاف. بس الخوف نسبي بين البشر.

- لا الخوف من وجهة نظري ضعف، وأنا مش ضعيف.

أنا بستبدل كلمة الخوف بالقلق. عارف لما كنت بحس إني عديت مرحلة القلق وداخل على الخوف كنت بواجه الخوف ده بقوة وعزيمة ومش مهم ايه اللي يحصل.

- إزاي يعنى؟

- يعني وأنا صغير كنت بحب أفتح النور وأنا نايم مابحبش الضلمة.

بس لما ابتديت أقرر أواجه أي حاجة بتخوفني وألغي الكلمة دي من قاموسى. كنت بتعمد أدخل الضلمة وأقعد، وبكون مرعووووب، وبتخيل حاجات كتير بس بغصب على نفسي علشان أعدي مرحلة الخوف دي، والحمدلله كنت بنجح فيها.

كمان الأماكن العالية ... أي حاجة. أي حاجة. هههههه عارف.

- بتضحك على إيه؟

- افتكرت أني كنت بخاف من الصراصير والأبراص والفيران.

عاااااارف علشان أعدي الموضوع ده عملت إيه؟ كنت بموتهم بأيديا على الحيطة. والفيران كنت بجري وراهم ولازم أموتهم.

حتى مرة جريت ورا فار على السلم، العصايا اللي قررت أضربه بيها اتكسرت وطارت، ورشقت جنب عينيا بالظبط.

ولما كبرت. الحاجة اللي أقلق منها وأحس أني رايح مرحلة الخوف منها أعملها أكتر من مرة؛ علشان أكسر الحاجز ده.

ابتديت ألعب ملاكمة ومناخيري أتكسرت، وأمي زعلت مني، وخلتني أبطل اللعبة اللي حبيتها.

أتجهت للحديد. كنت بلعب حديد علشان يكون عندي عضلات، وأقدر أدافع عنهم.

– أنت بتشتغل إيه؟

– مش أنت عايز تعرفني أديني بعرفك بنفسى. أصبر بقى على رزقك يا دكتور.

– ماشى. ما تشرب الكابتشينو. أقصد الكابتشيكو هههههههه.

– وصلت للثانوية والدنيا ماشية، وحبيت أدخل الكلية الحربية.

برضه أمي عارضتني كتير، وقالتلي هتسيبنا أنا وأخواتك لمين.

ماسمعتش الكلام ... كنت أنانى....

أو كنت قلقان من اللي جاى. مش عارف....

كنت حاسس أني لو بقيت ظابط ده هيوفر أمان ليهم وليا. وفعلًا قدمت وقبلت.

كان جسمي قوي، ولياقتي عالية جدًا.

مش هحكيلك على المندبة اللي حصلت في البيت وأنا رايح أول يوم.

وفضلت متواصل معاهم بالجوابات من هناك، وبعد فترة المستجدين بقيت لما أنزل يوم الخميس ألاقي أخواتي البنات منتظرني كأني أبوهم.

عارف. كنت بحوش مصروفي كل أسبوع علشان أجيبلهم شيكولاتة وأنا راجع. كنت بحب فرحتهم أوى.

- تحب تاخد راحة، ونكمل بعد شوية.

- لأ... أتخرجت ورحت الصاعقة. أكتر حاجة كانت ترضي غروري وتشبع رغبات العنف اللي اتولدت عندي من إحساس القلق طول عمري، وكنت وحش، واشتغلت في مهام مهمة كتير، وطبعًا كنت بتعرف على بنات وكدة يعني، والدنيا ماشية لغاية لما جه اليوم المشئوم.

أنا الحقيقة عندي أيام كتيرة مشئومة، بس ده تاني يوم في حياتي بعد يوم وفاة والدي...

اليوم ده كان بالتحديد يوم الزلزال الكبير سنة ١٩٩٢، فاكر الزلزال ده يا دكتور؟!

- طبعًا فاكره. مين في مصر مايفتكرش الأيام دى. الله لا يرجعها.

- كنت لسه ظابط صغير، وفرحان بنفسي، وبعرف بنت جميلة زي القمر، بتدرس في كلية الآداب جامعة القاهرة.

كانت ساعتها في سنة تانية على ما أفتكر، وكنت حاضر معاها المحاضرة علشان كنا متفقين نخرج بعد المحاضرات بتاعتها، بس أنا وصلت بدري وقالتلي احضر معايا، ونخرج بعد لما أخلص.

وافقت طبعًا...

واحنا في المدرج والدكتور بيشرح حسيت بصوت شبه الطيارة الهليكوبتر وكأنه بيقرب وبيقرب.

قلتلها إيه ده فيه طيارة بتنزل على سقف القاعة.

شوية ولقينا الشبابيك بتتكسر، وشظايا الزجاج بتطير، وعفرة نازلة من السقف، وفهمنا إنه زلزال.

شديتها من إيديها، وجريت بيها خرجتها من القاعة بعد ما وسعتلها في الزحمة، وسيبتها بره، ودخلت بسرعة أخلي البنات، والحقيقة كان الشباب الجدعان بيتكاتفوا معايا، وخرجنا البنات كلهم، وخرجنا والقاعة كانت شبه متكسرة، بس الحمد لله ماحدش حصل له حاجة.

خرجنا مش فاهمين إيه اللي بيحصل.

جرينا برة الجامعة لقينا مصر كلها في الشارع، والناس بتعيط، والبيوت اللي جنب الجامعة منهارة..

منطقة بين السرايات.. عارفها... البيوت قديمة ومتهالكة، ماكنتش ناقصة كمان تتعرض لزلزال.

كانت ساكنة في الجيزة، وطبعًا مافيش تليفونات محمولة زي دلوقتى. وماكنش حتى جنبنا تليفون أرضى.

المهم جرينا من الجامعة للجيزة، ووصلتها لغاية شارعهم، ولقيت أهلها في الشارع كويسين.

سيبتها وجريت عديت نفق شارع الهرم، وحاولت أركب أي حاجة.

كانت العربيات شبه واقفة من الزحمة، والناس كأنه يوم الحشر. قعدت أجرى. أجرى.

كان فيه ستات ملفوفة بالملايات بيستروا نفسهم وهما في الشارع.. وبيوت منهارة...

أطفال في حالة ذعر وهلع...

كبار مذهولين من المنظر حواليهم... يوم القيامة ده ولا اااايه ...

البلد كلها في الشوارع.

المهم وصلت لغاية منطقتنا قرب آخر شارع الهرم.

كانت الكارثة منتظرانى.

بيتنا انهار في الزلزال، وأمي وأخواتي الاتنين تحت الأنقاض.

فاهم يعني إيه ترجع تلاقي كل حاجة بقت تحت الأرض...

الماضي والحاضر والمستقبل كله مدفون تحت الأنقاض...

أمي وحنيتها ... أخواتي وشقاوتهم وجمالهم وحكاياتهم ...

حياتي كلها راحت في غمضة عين ...

لا عضلاتي نفعتهم، ولا الدبابير اللي على أكتافي نفعت، ولا أي حاااااااجة نفعت. دخلت زي المجنون أشيل الطوب والخرسانة مع الناس.

كان صف البيوت كله منهار، وصريخ وبكاء، ولما نطلع حد عايش تسمع زغاريد. ثلاث ليالي طويلة من غير نوم لغاية لما ظهروا.

حبايبى.... من جمالهم وخوفهم على بعض لما ظهروا من تحت الأنقاض كانوا حاضنين بعض.

أمي كانت نايمة عليهم. بتحاول تحميهم.

كانت عايزة تفديهم بجسمها.

منظر رهيب لا يمكن أنساه طول عمرى.

سبقوني وسابوني لوحدي.

راحوا لأبويا... كانت أمي دايماً تقولي إنه منتظرها ...

مرة حلمت بأبويا بيقولها ماتتأخريش عليا ... ماليش غيرك ...

كلهم أتجمعوا تانى... إن شاء الله في الجنة...

سابوني هنا لوحدي في النار ...

كانوا هما كل حياتى.....

رحمة الله عليهم جميعًا.

اختلطت دموع الدكتور بمشروب الكابتشيكو، وكذلك عمر السباعي الذي أخرج المنديل المنقوش، ووضع عينيه بداخله، حتى كادت الدموع تسيل من خلاله؛ فاحتضنه الطبيب، وربت على كتفه.

- كفاية دلوقتي يا عمر. أنا اللي مش قادر.

***

(٨)

رسالة قصيرة التقطها تليفون مديحة (مطلوب مليون جنيه مقابل لحمك)...

رسالة غامضة. رقم مجهول.

تلتها مجموعة من الرسائل بذات الكلمات، ولكن من أرقام مختلفة.

الرسالة التالية (فيديوهاتك الفاضحة معنا، وسنقيم عليك الحد).....

الكلمات أصابتها بالرعب والذهول.

حولت حياتها لجحيم مستعر.... لم تعد تخرج من المنزل.

مكتئبة حزينة غاضبة خائفة.

مجموعة من المشاعر المختلفة اختلطت مع مزيج من الضعف الداخلي؛ لأنها تعلم تمامًا ما كانت تفعله، ولكنها لا تعلم متى وأين؟

فالأزمنة مختلفة، والأماكن كثيرة، والوجوه أكثر....

رغم حذرها الشديد فإن أحدهم استطاع تسجيل لحظات الانتشاء.

علامات استفهام كثيرة تجول بخاطرها.

أحيانًا نعلم أننا مخطئون وملوثون، والوحل يغطي أجسادنا، ولكننا نرتدي ثوب البراءة، ونقنع أنفسنا بأننا ضحايا مع أننا المذنبون .....

نكذب على الناس كما نكذب على أنفسنا؛ لنجمل حقائق قبيحة .....

ثم نصدق كذبتنا؛ لنتطهر مما اقترفناه في حق أنفسنا وحق الآخرين.....

ونبكي وننتحب ونشكو من الظلم ونحن الظالمون.....

هذا طبع بعض البشر....

كل البشر إلا من رحم رب العباد.....

السؤال الأهم الذي يدور بذهنها...

هل تواجه؟؟ أم تهرب؟؟ أم ترضخ وتستسلم؟؟

الإجابة عسيرة..

هي من تغمز بعينيها؛ فيتيه العاشقون، وينجذب الهاموش لضوئها ...

هي من تشير بطرف أصبعها؛ فتتدافع حشود الذكور تتصارع لتصل لمحراب قلبها وكهفها....

هل بعد هذا الجبروت ترضخ؟؟

ومن يكون هذا المتحذلق المغرور الغبي الذي يحاول ابتزازها؟؟

ألا يعلم مصيره في حالة وقوعه في قبضة سطوة رجالهاوسلطتهم؟؟

الرسالة التالية (زوجك مرشح لمنصب أكبر، والمقاطع مدمرة.. عليك الاختيار).

إذًا من يساومها يعلم تمامًا من أين يستطيع الولوج لنقاط ضعفها.

ويعلم مدى حساسية الموقف ...

ماذا لو واجهت ورفضت الابتزاز؟؟ .....

فضلت الصمت والانتظار..

بعد عدة أيام وصلتها رسالة على برنامج الواتس من رقم آخر مرفق معها لينك لفيديو على موقع من المواقع الإباحية.

(لن تستطيعي الصمود.. العاصفة قادمة)...

فتحت الفيديو فإذا به إحدى نزواتها، ولكن الوجوه مشوش عليها بحرفية وتقنية حديثة، ولكنها تذكر المكان والزمان.

هذا المقطع مصور من تليفونها الشخصي ولم ترسله لأحد..

حتى اللاب توب الخاص بها...

من استطاع الحصول عليه؟؟

من اخترق حرمات خصوصيات تليفونها؟؟

من حصل على كلمة السر الخاصة بالتليفون التي لا يعلمها غيرها؟؟

كان لابد من اتخاذ التدابير اللازمة؛ لتغيير الرقم السري فورًا مع التفكير العميق في مدى إمكانية الاختراق.....

كل هذا ولم تأتِ الرسائل بتوجيه معين سوى طلب المليون جنيه.

أيام مضت وهي في قمة التوتر، حتى رن الهاتف، وكان الطرف الآخر صوت رخيم عميق، واضح أنه برنامج لتغيير الأصوات، هددها وأهانها، ثم أعطاها مهلة أسبوع لتجهيز المبلغ، وسيتصل بها مجددًا، وبعد أن أغلق أرسل إليها هدية أخرى، ولكن هذه المرة من داخل مرسم ناني ومشهد الفرشاة والألوان....

اختلطت الأفكار في عقلها، ولكن هذا الفيديو لم تصوره من تليفونها، ولم يكن هناك أحد غيرها وناني.....

من يراقبها؟؟ .....

إذًا الاحتمال الأقوى أن تكون ناني هي اللهو الخفي...

ولكن من أين أتت بباقي الفيديوهات التي هدد بها المتصل، والتي أرسل أحدهما من قبل دليلًا على صحة تهديده؟؟...

ربما سرقت تليفونها في لحظات الذوبان ونسخت ما فيه ...

بل أكيد.

***

(٩)

لم ينطق عمر، واتجه مباشرة نحو الباب، وخرج مسرعًا.

لم يتبعه الطبيب؛ لأنه كان متأكدًا من عودته مرة أخرى.

متى؟؟ لا يهم، ولكنه سيعود.....

عاد لشقته، وخلع حذاءه، وصعد لسريره متقوقعًا في وضع الجنين كما يحب أن يكون وقت أزماته النفسية.

وضع الجنين يشعره بالأمان.

فهو الوضع الذي خلق عليه الله كل الأجنة في أرحام أمهاتهم...

هذا الوضع المتقوقع المستسلم نموذج لإحساس الأمان الدافئ الهادئ..

شعور جميل ... الإحساس بالأمان...

نفقده بمجرد اعتدال أجسادنا والانزلاق لنفق الحياة..

وما إن نبصر الضوء الخارجي حتى نسارع بالبكاء...

حتى هذه اللحظة لم يخبرنا العلم الحديث بسبب واحد متفق عليه لحالة البكاء الهستيري للجنين بعد الخروج من رحم أمه واعتدال جسده....

ربما تكون لحظة فقد الأمان والخوف من المجهول هي السبب الحقيقي للبكاء..

ويستمر البكاء حتى يبكوا علينا ... بعد أن نعود من حيث أتينا...

لطالما أراد الأمان ولم يجده؛ فقاوم عدم الأمان بمواجهة مخاوفه، وحولها لقلق يستطيع مواجهته والانتصار عليه في غالب الأحيان....

غط في نوم عميق بدون أحلام ولا كوابيس هذه الليلة..

فكأن فضفضته عند الدكتور مصطفى محمود حررته..

ولكن هيهات، فهو في البدايات، وهل يستطيع أن يكمل حتى النهايات؟؟.

بعد أن استيقظ وأجرى طقوسه المعتادة قرر الذهاب لمنزل الطبيب....

- أدخل أنا عارف أنك مش هتتأخر.

- هو أنت موجود على طول يا دكتور.. مابترحش في أي مكان.

- لا زي ما أنت شايف أنا لوحدي، ويا دوب بخرج لما أكون عايز أشتري حاجة أو أقعد على البحر. غير كده هتلاقيني زي ما أنا...

- مين الست اللي جوه دي.

- دي أم حسن بتيجي كل أسبوع يوم تنضفلي الشقة، وتاخد اللي فيه النصيب وتمشى.

- هي ممكن تجيلي مصطفى كامل ولا ماينفعش؟

- ممكن أكيد، أنا هجيبها تتفق معاك لما تخلص شغلها جوه.

- شكرًا يا دكتور. أنا مش عارف أنا واخد راحتي معاك جدًا كأنك والدى.

- وكأني ليه.. اعتبرني والدك. أعتقد لو كان عايش هيكون في سنى.

- تقريبًا.

- أيه أخبارك النهارده؟ تحب تكمل كلام، ولا ندردش في أحوال الدنيا.

- مش عارف هقدر ولا لأ، بس أحاول.

- طيب... طالما هتحاول بقى.. أقوم أعمل اتنين كابتشيكو هههههه؛ علشان نظبط دماغنا وإحنا بنتكلم.

- هاااايل.. أنا فعلًا محتاج كده جدًا.

اختفى الطبيب في المطبخ، وظهرت أم حسن في الغرفة المجاورة. سيدة في أواخر الأربعينات. ريفية المظهر. تقاطيع وجهها توحي بالفقر والقهر. جسدها مازال محتفظًا بأنوثته على استحياء ...

راقبها عمر، وتمنى لو وافقت على العمل عنده في شقته يومًا في الأسبوع.

- أتفضل يا عم الكباتشيكو بتاعك. قررت إيه؟

- قررت أتكلم مع أم حسن.

- أم حسن مين؟؟؟؟؟؟؟

- أم حسن دي... الست اللي جوه ... اللي بتنضف عندك دي ....

- وماله.. طيب عايز تقولها إيه؟

- عايز أعرف حكايتها ...

- هههههه هو أنت هتاخد شغلانتي ولا إيه يا عمر...يا ابني أنا الدكتور مش أنت.

– والله ما بضحك يا دكتور... ساعات الواحد بيحب يسمع من غيره.. شكلها عندها بلاوي كتير... ولما تسمع بلاوي الناس تهون عليك بلوتك... هما مش بيقولوا كده برضه ...

– فعلًا.. كده.. بس اللي أنت تحسبه مشكلة عندك ممكن يكون فرج وخير عند ناس تانية... المسألة نسبية جدًا... هما برضه بيقولوا كل برغوت وعلى قد دمه...صح؟

– صح.... ممكن تناديلها من فضلك.

– أم حسن. أم حسن. تعالي لو سمحتي.

– حاضر يا دكتور...فيه حاجة... تحت أمرك.

– الأمر لله يا ستى. الأستاذ عمر صديقي عايزك تزوريه مرة في الأسبوع تنضفيله شقته في مصطفى كامل. هو عايش لوحده زي حالاتي كده..

– وماله يا دكتور. تحت أمره وأمرك. هات يا بيه العنوان وأنا أجيلك تحب إمتى..؟

– بكرة من فضلك يا أم حسن، أنا للأسف مانضفتش الشقة من زمان، معلش هتتعبي معايا شوية.

– ولا يهمك. إن شاء الله هتبقى زي الفل. جيت في وقتك يا أستاذ. أنا مش لاقيه شغل، والحالة صعبة اليومين دول.

– ماتقلقيش اللي أنتي عايزاه هاتخديه. هنتظرك وآدي العنوان ...

- ماشي حاضر. بالإذن أنا علشان ألحق أخلص.

لم يتحدثا في شيء مهم، ولم يفتح عمر قلبه، ويخرج ما تبقى من درره المدفونة حتى استأذن، وغادر وكل تفكيره مشغول بأم حسن !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

***

صباح اليوم التالي رن جرس الباب في الثامنة صباحًا.

لم يسمعه في المرتين الأولى والثانية، وفي الثالثة استيقظ مفزوعًا.

نظر في ساعته، وتوجه للباب انحنى؛ ليضع عينه على العين السحرية...

سيدة سمينة ترتدي نقابًا أسود؛ فانقبض قلبه، وتردد قليلًا قبل أن يسأل من بالباب، فتجيبه السيدة بأنها أم حسن.....

استجمع قواه التي خارت، ومسح على شعر رأسه بيديه بعد أن انحنى حتى كاد يلمس ركبتيه برأسه ... ثم فتح الباب وسمح لها بالدخول وهو مذهول من ملابسها.

فقد رآها عند الطبيب بجلابية بيت بلدي نصف كم، ولم يكن هناك أي مؤشر لتنقبها.

دخلت وكأنها تعرف كل شبر في الشقة.

توجهت للمطبخ مباشرة، وأغلقت الباب خلفها، وتوجه هو إلى حجرته وكأنه منوم مغناطيسيًا، وكأنه يحدث نفسه بأنها تعلم سبب وجودها؛ وبالتالي لا داعي للحوار أصلًا؛ فهو لم يستيقظ بعد.

هي لم تسأل، ولم تعطه حتى الفرصة للحوار.

واضح أنها عملية جدًا، وتعلم جيدًا ماذا تفعل.

عاتب نفسه على الثواني التي فقدها في التفكير في هذا الموضوع التافه.

فهي مسئولة عن النظافة، وهو لابد أن يعود إلى فراشه؛ ربما يعود لأحلامه.

نام على جانبه الأيمن؛ حتى يواجه باب الغرفة، ويستطيع الاستيقاظ فورًا في حالة طلبها، وهو الذي يحب النوم على جانبه الأيسر لسببين...

أولهما إصابة قديمة في كتفه اليمنى جعلته يتفادى التحميل عليه ...

والسبب الآخر أنه أصيب مرتين بالتهابات في الأذن الوسطى، ويحس بدوار شديد عندما يضع أذنه اليمنى على الوسادة.

لحظات وكان يغط في نوم عميق ...

ارتفع شخيره؛ فضحكت أم حسن، وأيقنت أنه في عالم آخر، وتخلصت من ملابسها الثقيلة، وارتدت جلبابًا خفيفًا يمكنها من أداء عملها بحرية...

ولِمَ لا؟! وهي وحدها في الشقة، ومن صوت مزامير أنفه توقعت ألا يصحَو إلا بعد ساعات طويلة، وبالفعل ما توقعته حدث، وأنهت عملها وهو ما زال على حاله.

دخلت عليه، ونظفت غرفته وهو مازال نائمًا.

ولمحت الغطاء وقد انحسر عن جسده، فسحبته وأعادته؛ ليغطي جسده القوى.

فتحت باب الشقة وغادرت بهدوء

***

(١٠)

انساق خلف شيطانها، ونسي قيمه ومبادئه، وهام في غرام شرها وكأنه مسحور.

أصبحت توجهه وتأمره، وينفذ كالعبيد.

ولماذا كالعبيد؟ فهو بالفعل أصبح عبدًا لشرورها.

أرهقته بطلباتها المتزايدة المتلاحقة المجنونة التي لا تتناسب مع مستوى معيشتهم ودخلهم، وتورط في اقتراض مبالغ كبيرة؛ بسبب ضعفه وخنوعه؛ فقد كان عشقه لها يسلبه عقله ليس أحيانًا بل دائمًا.

صار مدينًا بمبالغ كبيرة، وأوحت بشيطانها لمقرضيه برفع قضايا شيكات والحصول على أحكام؛ فكان قاب قوسين أو أدنى من دخول السجن.

هنا أظهرت له أنيابها من تحت الشفاه الناعمة، وغرستها بلا رحمة ولا شفقة في شرايين قلبه، فامتصت دمه الطاهر النقي، وبثت سمومها؛ لتنتشر في عروقه؛ حتى أمسى دمية قبيحة لا تملك أي قرار.

بدأت بتسديد الديون، ولم يكن يعلم أنها قد كنزت من عملها هذه المبالغ وكيف؟؟

وعندما استسلم رافعًا رايته البيضاء بدأت تغريه بالمزيد من المال، ولم يعد لديه رفاهية الاختيار؛ فقد أصبح مجبرًا على الانسياق خلف أحلامها السوداء.

أعطته دورًا أكبر في مؤامراتها وخططها، وبدأ يلعب دور المصور الخفي؛ ليلتقط الصور الفوتوغرافية ومقاطع الفيديو للحظات الملتهبة التي تحيكها ناني الشريرة.

غالبًا ما يولد الإنسان على الفطرة.

قلبه كما يقال في الأمثال كالبفتة البيضاء، أي كقطعة القماش ناصعة البياض.

أحيانًا يظل محتفظًا بهذا البياض لفترات متفاوتة؛ حسب قدرته على مقاومة الظروف المحيطة به والمواقف التي يتعرض لها.

وأحيانًا النقاط السوداء تجد طريقها للقلب الأبيض أسرع مما يتوقع الشخص نفسه.

المؤكد أن لا أحد يولد شريرًا أو قلبه أسود.

ولا يوجد أحد يموت وقلبه في مثل بياض ميلاده.

الحياة صعبة جدًا.....

حكاياتها كثيرة، وسقطاتها أكثر.

النجاح والنجاة في مدى القدرة على الصمود.

عاطف صمد أمام أدران الحياة سنوات طويلة..

ها هي حصونه تتهاوى أمام طوفان شر ناني وشراهتها وعشقها للأموال والمجوهرات وكل ما يمكنها امتلاكه. فعندها شهوة للامتلاك.

وبعد أن امتلكت مفاتيح قلب عاطف امتلكت كل جوارحه ...

بدأت تدير عقله من خلال مفاتيح خيوط عنكبوتها التي نسجتها حوله، وشلت حركته تمامًا، وتحكمت حتى في أنفاسه.

شعور صعب جدًا أن تشعر بالعجز.....

أي رجل مكتمل الرجولة ولديه الأهلية الكاملة.

العجز يقتله.....

العجز عن اتخاذ القرار..... العجز عن التوجيه.....

العجز عن توفير أسباب المعيشة لأسرته.....

العجز عن التفكير..... العجز عن الحركة.....

العجز الجنسي الذي سيصيبه بمجرد إحساسه بالعجز.

وسيزداد سوءًا.

بعد أن يصاب بالإحباط يتحول لبقايا إنسان، ولماذا إنسان؟

فالإنسانية قد سُلبت منه أثناء تعقيمه وتعجيزه.

بل يتحول لبقايا كائن.

كان في الأصل بَشريًا ... وربما كان يومًا ما إنسانًا.

يتذكر عاطف صراخ ابنه الصغير يومًا أمام مطعم شهير في وسط البلد وهما في جولة وحدهما.

ومع زيادة الصراخ اقترب منه شاب صغير، وسأله عن سبب صراخ الصغير.

فأجابه أنه يريد ساندوتش برجر وهو لا يملك ثمنه، وليس من المعقول أن يشحت مثلًا؛ ليطعم صغيره ساندوتش برجر!!

فانصرف الشاب، وظل الطفل يدبدب على الأرض بقدميه، ويصرخ ويرفض التحرك رغم توسلات والده.

بعد لحظات حضر الشاب مرة أخرى وفي يده ساندوتش برجر، وأعطاه للطفل وهو يربت على كتفه، ويبلغه أن والده أعطاه النقود؛ ليشتريه له حتى لا يغضب.

فيحضن الطفل ساق عاطف والده في فرحة غامرة شاكرًا له تنفيذ طلبه...

هنا الدموع فرت تتدحرج على خد عاطف، واحتضن الشاب وشكره.

فكما ساد الشر والأشرار مازال في الدنيا مثل هذا الشاب الشهم الأصيل، الذي ما كان يملك في جيبه سوى تلك الجنيهات القليلة التي ادخرها خلال الأسبوع؛ ليأتي إلى هذا المطعم، ويأكل بها لقيمات مما يشتهي ...

لكنه فضل أن يسعد طفلًا باكيًا وأبًا مغلوبًا على أمره على أن يحقق أمنية معدته، التي ظلت صامدة أسبوعًا من العمل؛ حتى تلتهم ما تحب.

غادرا المكان، ولكن بقي إحساس العجز يملأ جنباته.

غادر المكان، ولم يغادره الإحباط الذي أصابه في المكان.

لا يوجد أصعب على الرجل من عجزه عن توفير متطلبات أفراد أسرته.

تراكم هذا الإحساس القميء ساعد في استسلامه لتوجيهات الساحرة الشريرة ناني وأوامرها.

ساحرة قلبه الصغير أيام الكلية التي تحول سحرها لمحرك شر يقيد كل من حوله، ويشل حركته بخيوط عنكبوته السوداء.

***

(١١)

غطت وجهها بالنقاب، واستدعت المصعد للدور الرابع عشر، وفي انتظار وصوله.

نظرت من بئر السلم، وكادت تسقط عندما أصابها الغثيان؛ فقد كانت تعاني من فوبيا المرتفعات.

رفعت نقابها لتستنشق نفحة من الهواء، وتستعيد توازنها قبل أن يصل المصعد، وتفتح بابه، وتضغط على زر الأرضي، وينطلق في طريقه الطويل، فتستند على أحد جانبيه وهي تتذكر ملامح عمر السباعي...

فقد راقها الشاب الكبير، وتغزلت في قوامه، وحركت عينيها بغمزات توحي بالإعجاب مع عضة شقية على شفتها السفلى، ولحظها الجميل أنها كانت ترتدي النقاب، فقد وصل المصعد للأرضي، والمنتظرون فتحوا الباب، وهي مازالت هائمة في ملكوت آخر؛ حتى نبهها أحدهم، فكأنه أيقظها، واعتذرت وغادرت في طريقها للغرفة التي تسكنها تحت السلم في المنزل المشترك ...

هناك في الدور الأرضي أربعة غرف، تسكن كل غرفة أسرة منفصلة، وبينها دورة مياه مشتركة لهم جميعًا.

منزلها يكاد ينهار من الإهمال، وكم طفحت المجاري؛ حتى أنهم وضعوا عدة أحجار؛ ليتحركوا فوقها في الممر المؤدي من غرفتها لدورة المياه ذات الباب الخشبي البائش من تشربه بمياه الصرف، والمكسورة ألواحه من الأسفل بمقدار ٣٠ سم، بحيث يستطيع الزائر أن يرى أقدام ساكنه بمجرد أن ينحني وينظر من أسفل الباب.

لحسن حظهم أن قاعدة التواليت البلدي مكانها في إحدى الزوايا غير المجروحة للباب، وإلا كانت كارثة لمن يجلس لقضاء حاجته.

أما من يريد أن يغتسل فالأمر خطير، ويحتاج لبعض الاحتياطات الأمنية؛ حتى لا يقتحم زائر المكان، أو يشاهد الأجساد العارية من خلال الشقوق الكبيرة في الباب الخشبي.

دخلت غرفتها، ورفعت نقابها، وأعادت شعرها الأسود الطويل المجعد إلى أسفل ظهرها؛ فتدلى حتى كاد يلامس عجيزتها واستكان.

وجدت بنتها شادية ذات السنوات العشرة نائمة على السرير الوحيد بالغرفة المكونة من سرير عرضه ١٤٠ سم، وعليه ملاية مهترئة ومخدة طويلة، يخرج القطن الأسود من عدة فتحات بها، وكنبة بلدي أمام السرير، وترابيزة خشبية صغيرة، وعلى الأرض حصيرة مفروشة، كانت خضراء في الماضي،

ولم يعد لها لون محدد، وتحت السرير توجد شعلة الكلوب التي تستخدم بدلًا من البوتاجاز، وهي سهلة الحمل، ولا تشغل مكانًا، وسهلة الانفجار أيضًا.

بجوار الكلوب مشنة من سعف النخيل بها بعض الكحك البلدي المخبوز، وأرغفة من عيش الذرة، وقطع من الجبن القريش مغطاة بمفرش لا يختلف كثيرًا عن منظر الملاية التي تغطي المرتبة القطنية المتهالكة.

لمست جبهة ابنتها؛ فوجدتها ساخنة من أثر الأنفلونزا؛ فبلّت قماشة من صينية مملوءة بالماء ووسطها قلة مياه، ووضعتها على جبينها، واستدارت تخلع عباياتها وصديريتها؛ فتدلى صدرها المترهل الضخم حتى أعلى بطنها، فرفعته بيديها، وعدلت وضعه أسفل جلباب البيت القطني. ثم ألقت بنفسها بجوار ابنتها، وأمعنت النظر لسقف حجرتها متأملة في شيء ما.

لم يكن الشيء موجودًا في الغرفة ولا سقفها.

لقد سرح خيالها حتى أوصلها أنها لم لا تستولي على هذا السباعي وشقته الفاخرة.

فقد سمعت من الدكتور أنه يعيش وحيدًا، وأنه يعاني من صدمة قوية أفقدته اتزانه وحبه للحياة....

لِمَ لا؟....

تفرد شباكها عليه وتقتنصه، ثم تعتصره وتحلبه؛ إما أن يكمل المشوار أو سينتحر إن آجلًا أو عاجلًا، فمثل هؤلاء القوم لا يستطيعون الصمود أمام كوارث الحياة.

في كل الأحوال ستكون كسبانة كسبانة.

لم يقطع حبل أفكارها سوى حسن آخر العنقود صاحب السنوات الست، وقد دخل عليها ولم تلاحظه حتى خلع حذاءه القديم، وقفز على جسدها في محاولة منه لاقتناص جزء يسير من السرير.

استفاقت من أحلام اليقظة، وأخذته في حضنها، وضغطت عليه؛ فكاد يغوص بجسده الهزيل بين فاصل ثدييها.

بدا كأنه لا يستطيع التنفس؛ فقرصها؛ فلسعته بكفها، حتى يعود داخل أكياس الدهن البلورية ويستكين.....

يستسلم فيغلق عينيه، ويغط في النوم بسرعة كبيرة.

إما مستسلمًا لها؛ كي يتجنب لسعاتها المتكررة، أو من إرهاق يوم طويل بين المدرسة وورشة الميكانيكي التي ينظفها بعد خروجه من المدرسة.

أحلام... بنتها الكبرى ذات الثمانية عشر عامًا تدخل بدورها، وتخلع نقابًا زهريًا مبلولاً كانت ترتديه؛ فيظهر بياض وجهها المنقوش بالنمش، وتلمس كتف أمها الممددة على السرير في إشارة لتحية الوصول، وتستكمل خلع ملابسها وارتداء جلابية البيت.

تبقت زهرة بنتها التي تعمل في مشغل للملابس وعمرها أربعة عشر عامًا. مازالت في ورديتها المسائية.

ثلاث بنات وولد هي حصيلة زواجها، وهي تكدّ وتعمل لتلبي متطلباتهم التي لا تنتهي ... كذلك أرسلت أحلامًا؛ لتعمل في البيوت مع أنها تخشى عليها من مساوئ الشغلانة ...

زهرة في المشغل، وشادية في البيت، وحسن في بداية حياته المدرسية جنب تنظيفه لورشة الميكانيكي التي في الشارع الرئيسي على مسافة نص ساعة مشي من حارتهم في أول مدن البحيرة الملاصقة للإسكندرية.

***

(١٢)

استيقظ متأخرًا، واعتقد أنهم نقلوه أثناء نومه لمكان آخر أكثر نظافة وتنظيمًا. يا لها من فكرة رائعة، استدعاء أم حسن يومًا في الأسبوع. سيكون الأمر أكثر من رائع.

ما هذا؟! هل سأستعيد حب الحياة؟

هذا السؤال جال بخاطره وهو يتفقد غرف الشقة التي بدت أكثر جمالاً.

أمسك بريموت التليفزيون الذي لم يجده منذ وصوله، ولكنه وجد أم حسن قد وضعته أعلى المنضدة في غرفة المعيشة.

ضغط على زر إعادة الحياة، وقبل أن تكتمل الشاشة عاد ليضغط على زر الإطفاء.

ماذا يحدث له؟

ما بين عودته ونومه ثم استيقاظه حتى يفتح لشغالته الجديدة ثم نومه فاستيقاظه ساعات قليلة، ولكنه يحس بشيء غريب؛ فقد عادت إليه نبضات الحياة وإن كانت ضعيفة ...

ماذا لو يفعل أي شيء جديد؟

يجب أن ينخرط في نشاطات الحياة إذا أراد الاستمرار..

الاستمرار في الحياة فكرة لم تكن مترسخة في ذهنه منذ قدومه إلى الإسكندرية.

فالنهاية هي الكلمة الوحيدة التي كتبها في كل مكان حوله.

على مرآة الحمام وعلى مرآة تسريحة غرفة النوم...

كتبها على الأوراق التي كانت مبعثرة هنا وهناك.....

أين ذهبت الأوراق؟؟..

أين الكتابات على المرآة؟؟ .... أم حسن .....هي سر اختفاء كل أثر للنهاية.....

إذا فلتكن بداية.....

ارتدى ملابسه، واتجه للصديق الوحيد الذي تحصّل عليه في أزمته الأخيرة.

جرس الباب يطلق زقزقة عصافيره، ويفتح الدكتور مصطفى محمود؛ ليجد أمامه عمر في مظهر جديد ....

مهذب الذقن والشارب، ويرتدي ملابس مهندمة، وشعره مموج بتسريحة مميزة.

يطلق صافرة إعجاب، ويقابل ابتسامة عمر بابتسامة وحضن وقبلتين على الخدين.

– اتفضل. اتفضل. لاااااا النهاردة إحنا عال العال.

– مش عارف يا دكتور والله إيه اللي حصل لما صحيت من النوم ... لقيت البيت كله مترتب، وحسيت إني رجعت تاني للحياة.

– عظيم.

– لا، هو مش عظيم بالنسبة للقرار اللي كنت واخده.

– إيه هو القرار ده؟

– هتكون أنت الوحيد اللي تعرف القرار ده يا دكتور. أنا كنت واخد قرار بالانتحار.

– انتحاااااارر!!!... قرااار... يعني لما لحقتك عند اللسان كنت فعلًا عايز تنفذ قرار إنت واخده أصلاً...

– أيوة. يوم ماجيت. أنا أساسًا كنت بحاول على الطريق أمشي بأقصى سرعة يمكن كاوتش يفرقع، ولا تحصلي حادثة ونخلص.

– ياااابني ارحمني شوية من النظرة التشاؤمية بتاعتك دى. ليييييه ده كله. وبعدين أنا مبسوط جدًا أنك بتتكلم أساسًا.

– فعلًا. وأنا كمان مبسوط إني هنا، ومستريح جدًا وأنا بتكلم معاك.

– طيب ما تكمل بقي حكايتك. وقفنا فيييين؟

– وقفنا عند زلزال ٩٢.

- صح. تعيش وتفتكر. ممكن تكمل.

- كانت أيام صعبة جدًا. فجأة أصبحت وحيد في الدنيا.

مافيش حواليا حد.

الوحيدة اللي وقفت جنبي ساعتها كانت (حبيبة) البنت اللي كنت معاها في الجامعة ساعة الزلزال. بنت مصرية جدعة من ساعة الحادثة دي ماسبتنيش خاالص.

يا تليفونات، يا إما معايا.

يمكن علشان الأمانة بس كانت بتسيبني قبل المغرب، وترجع بيتها، وطبعًا الأيام اللي بكون فيها في الشغل.

عارف أجمل حاجة إيه في البنت المصرية؟؟ !

الجدعنة.....

سيبك من الشكل والمظهر والعيلة والدين، وأي حاجة تدور عليها وتلاقيها في بنات العالم.

هنا بس ..... تلاقي الجدعنة....

هيكلموك عن جمال بنات الدنيا كلها...

مين قال إن بنات مصر مش جميلة...

مش لازم العيون تبقي زرقا والشعر أصفر...

ما إنت عارف يا دكتور دلوقتي كل بنت ممكن تحط لينسز بأي لون، وتصبغ شعرها حتى لو أحمر....

مش هو ده الجمااااال...الجمال جمال الروح...

الجدعنة .....

اللي بكلمك عليها واتحداك لو لقيتها في حتة تانية غير بنات مصر...

هي الأم ...الزوجة... الأخت ... الحنية كلها في بنات مصر...

اللي تطبطب عليك وقت ماتلاقيك تعبان أو متضايق...

ماتعرفش تنام وأنت صاحى...

ما تقدرش تاكل وأنت جعان...

بتدفي في حضنك مش مهم يكون عندها غطا...أنت غطاها...

تقف جنبك في وقت الشدة ولا أجدع راجل...

بس يا ويلك، ويا سواد ليلك لو بصيت لواحدة غيرهاااااا....

هنا بقي بتتحول..المصرية هي الأنثي الوحيدة على مستوى العالم اللي شبه البحر...

يستقبلك ويضمك ويشيلك على دماغه، وتستمتع بيه، ومعاه بس لو قلب عليك.

موجه بيعلى ويغطيك ويشيلك، ويحطك ويا عاااااالم هيعمل معاك اااااايه... هههههههه.....

حبيبة بالرغم من رفض أهلها ليا في الأول علشان خايفين عليها. كانوا مش عايزين مصيرها يرتبط بظابط حياته كلها في خطر وسفر ...

أنا كنت ظابط جيش يا دكتور ... شغلي في جبال سيناء، ومسافر على طول، وأسلوبي ميري شوية، وقلبي اتحجر من كتر ما أنا عايش وسط الحجارة في الصحراء.

كان والدها خايف عليها جدًا.

حتى كان بيقولها خلي بالك لو أخترتيه تبقي بتختاري تكوني أم وأب في نفس الوقت.

مش هتشوفيه يا بنتي غير في الأجازات. فاهمة يعني إيه.

وطبعًا هي كانت دايبة في دباديبى.

مع إني مش عارف يعني إيه الدباديب دي هههههههه.

– الدباديب دي تقريبًا آخر كعب القدم بتبقي إسفنجية كدة. وبيقولوا عليها الدباديب. هههه ... كمل أنا مركز معاك جداااااً يا عمر.

– تصدق يا دكتور، كان عنده حق. مرة وأنا قاعد قدام المبيت بتاعي في سيناء. فكرت كده.

قلت أنا بنزل كل شهر مرة ٤ أيام يعني في السنة ٤٨ يوم، يعني شهر ونص في السنة أكون في بيتي، يعني لو قلنا ٢٠ سنة بعد الجواز هعيش مع مراتي وولادي فيهم تقريبًا سنتين ونص.

ياااااااه.....

صعبة أوي فعلًا على الست أنها تكون زوجة لظابط، وبالذات ظابط الجيش.

علشان كده لما كنت باخد قرار الارتباط كنت بدور على واحدة تكون أم ولادي مش زوجة ليا وبس.

ليهم الجنة زوجات الظباط.... مسئولية وحمل تقيل.....

والمفروض لما الراجل ينزل أجازة تدلعه وتهنهنه. بالذمة ده مش ظلم ليها. وبعدين هي كمان بيضيع عمرها وشبابها مع بُعْده عنها وغربتها وهي عايشة لوحدها بولادها.

ولازم تكون بمائة راجل علشان تواجه مشاكل الحياة لوحدها.

ناهيك عن التحرشات اللفظية وخلافه، وبالذات لما يعرفوا أنها لوحدها.

عزاءها اللي بيخليها تقف زي الأسد أنها متجوزة بطل بيحمي البلد، وبيضحي بنفسه علشان ترابها ... وأكيد حبها له بيهون عليها كل صعب ... طبعًا أحنا نتحب على طول يا دكتور مش كدة ولا إيه هههههههههه؟

عاااااارف مرة حصل موقف غريب جداااااً، وحبيبة في الثانوية العامة...

كنت أنا لسه متخرج، ولسه عارفها من قريب، وكلمت والدها، وكان مش مقتنع بيا نهائى.

المهم المدرس بتاعها طلب يتجوزها من والدها، وهو وافق بس بشرط أن المدرس يقنعها..

طبعًا وهو بيديها الدرس الخصوصي قعد يكلمها عن الأهوال اللي بتتحملها زوجة ظابط الجيش وأسلوبه في التعامل، وعاااااااش في الحكايات الوهمية علشان يكرهها في الظباط عمومًا ...

هي جدعة.... قلتلك بمائة راجل.

قالتله: هو بابا قالك؟

طيب من فضلك اسكت، أنا بحبه ومش هسيبه لو انطبقت السماء على الأرض.

راح ببجاحته قالها: بس أنا اللي هتجوزك، وأنا أخدت موافقة والدك.

طبعًا سابته ودخلت غرفتها، وماكنش فيه تليفون محمول علشان تكلمني، بس هي كتبت الحوار كله اللي حصل، وكنت متعود أكلمها من تليفون كابينة بتاع قرية بدو قريبة من مكان تمركزنا..

كنت بخطف المكالمات، والحقيقة كانت الموظفة بتساعدنى.

كانت مسكينة خطيبها توفي في حادثة، وكانت بتفرح أوي لما تسمعنى بكلم حبيبة.. هههه أنت عارف كنت لازم أعلي صوتي علشان حبيبة تسمع، وكانت الموظفة بتقفل عليا الكابينة بالمكتب، وتقف بره، وبرضه سامعة كل حاجة.

المهم حبيبة قالتلي على اللي حصل ...

رحت استأذنت، وكلمت واحد دفعتي، هو قريب مني ويعرف قصتي مع حبيبة. وحكيتله وقولتله على خطتي ووافق.

– خطتك. شوقتنى. اااااايه ياااااعم روميوووووو عملت اااااايه؟

– اتقابلنا ورحنا بلبس الجبهة المموه على المدرسة اللي بيدرس فيها متعوس الرجاء، وسألنا عليه.

انتظرناه لما نزلنا بلغته أن أختي في الثانوية ومحتاجة درس خصوصي، والبيت قريب من المدرسة. ... الراجل شربها وفرح.

قالنا ممكن تنتظروني اخلص الحصة، وأجي معاكم أعرف الطريق ونتفق.

طبعًا انتظرناه على قهوة قريبة من المدرسة.

أخدناه ودخلنا بيه من شارع لحارة لغاية لما وصلنا لمكان فاضي.

آسف يا دكتور في اللفظ....عامل زي الخرابة، ومافيش حد خالص حوالينا.

رزعناه علقة هيفضل يحلم بيها طول عمره، وعرفته يعني إيه يعاكس خطيبتي وكماااااان عايز يتجوزها.

بعد العلقة هددته أني لو سمعت أنه قرب منها هقتله هههههههه.

طبعًا مش هحكيلك على اللي حصل.... اختفى من على شاشتها تمامًا.

حتى أن والدها كان بيحاول يتصل بيه، وبيقول إن واحد بنفس صوته بيرد عليه، وبيقول إنه أخوه، وإن المدرس سافر هههههههه.

الجبان الخسيس. كان عايز ياخدها مني .... كان عايز ... فاكر الموضوع سهل كدة ... ده كانت تطير فيه رقاب ...

صمت عمر فجأة، ولم يكمل الجملة، وانكمشت تقاطيع وجهه من الضحك إلى تجاعيد الحزن، ثم سقوط قطرات من الدموع، بدأت بطيئة، ثم ازدادت، وكأنه يطلقها من رشاش في عينيه.

– كفاية كدة يا عمر. عمر. عمر. بقولك كفاية. ماتيجي نطلع نتمشي على البحر.

لم يتفوه بكلمة. مسح عينيه بيديه، وتتبع خطوات الدكتور مصطفى لخارج الشقة، وتأبط ذراعه، وها هما يسيران بمحاذاة الكورنيش، يتأملان موجات البحر الشقية، وهي تقذف زبدها على الرمال الدافئة.

ما أروع البحر .....أمواجه وزبدها الأبيض ... صوت الموج وهو يلاحق بعضه وسيلة مؤكدة للراحة النفسية والإحساس بالهدوء.

لون البحر الأزرق بدرجاته حتى يصل للون الأخضر في بعض بقاعه.

الموجات العالية الصاخبة التي تنكسر قبل الوصول للشاطئ، فتأتي بزبدها الأبيض؛ ليصل لرماله، ثم تعود مسرعة لعمق البحر وكأنها ترفض أن تخرج إلينا، فهي تتمسك ببحرها الغامض.

هذا المنظر الراائع يعطي إحساس الراحة.

الهدوء. الطمأنينة. الغموض. إنه البحر.....

العشق.....

***

(١٣)

ناني أصبحت تتاجر بمتعة زبائنها، وتجد متعتها الشخصية في السيطرة عليهن؛ ومن ثم ابتزازهن بطرق غير مباشرة، ولكنها تنجح في الحصول على كل ما تريد ...

وتطور الموضوع من الرسم إلى تحريك الفرشاة على الجسد، حتى ما لا يستطيع القلم وصفه بأحباره على الأوراق فتتسخ....

أنشأت ناني صفحة على وسيلة التواصل الشيطانية تدعو فيها للاستمتاع الجنسي، تحت مسمى الرسم بالفرشاة على الجسد العاري، ورأته أحد أنواع المساج الناعم.

وأغلقت الصفحة على المشتركين الذين تختارهم بعناية من آلاف الراغبين في الانضمام؛ فقد كانت لها شروط محددة وواضحة تبغي فيها استقطاب عدد من الأغنياء وذوي المراكز المرموقة ممن سيخشون الفضيحة لاحقًا، فتستطيع وزوجها أن يستغلاهم ويبتذاهم بعد أن أصبحت مهنتهما الشيطانية.

الضيوف يزدادون، والفرشاة لم تعد تحتمل.

فتم تعيين مساعدات ممن يملكن الأجساد المثيرة.

تم شراء الدور بالكامل؛ لتنضم مساحته للمرسم الصغير.

وتوضع لافتة كبيرة بجوار المرسم بأنه بيوتي سنتر للرجال والسيدات...

بالعودة لوسائل الاختلاف الاجتماعي المسماة بالتواصل الاجتماعي.

فقد أصبحت آفة العصر والزمان والمسئولة الأولى عن معظم حالات الانفصال العائلي، سواء بين الزوج والزوجة أم بين الكبار والصغار والآباء والأبناء...

هذه الصفحات والمواقع التي تثير الفتن، وتبث روح الوقيعة، وتبث سموم الإشاعات وسط جموع المجتمع.

بالتأكيد من أنشأها وفكر فيها كان يريد خيرًا بالتواصل بين جموع البشر والترابط المجتمعي.

لكنها تحولت لدينا إلى كل ما هو سلبي.

تم استغلالها كثيرًا في توجيه الرأي العام وإثارته؛ مما ورط مجتمعنا في أحداث ما كانت ترد على عقولنا..

الخبر ينشر ليس له مصدر، ينتقل كما تنتقل النيران في الهشيم؛ فتأكل كل من يقابلها بلا رحمة أو وعي ...

لأن المجال متاح بلا رقيب؛ فكل ثعبان يستطيع أن يبث سمومه.

يزيد من غلة الشر الكامن في طيات الخبر؛ فتثور مشاعر الناس.

تهدد المجتمع بثورات ونيران تشتعل؛ فتحرق الجميع دون استثناء.

أصبحت العلاقات الإنسانية بين الجميع عبارة عن رسائل إلكترونية..

توقفت الزيارات العائلية والتجمع في المناسبات.

بل حتى الاتصالات التليفونية استبدلوا بها الرسائل والتواصل عبر هذه الصفحات والمواقع.

الأسرة كلها لو اجتمعت.

تجد في كل يدٍ جهاز تليفون أو تاب أو أيباد.

الجميع مشغولون بالرد على الرسائل أو تصفح المواقع.

تمزقت الأرحام، وانتحرت على صفحات الإنترنت ...

لم تعد هناك صلة رحم ... بل لم يعد هناك تجمع للأسرة .....

***

(١٤)

ظلا صامتين..

يسيران على شاطئ الإسكندرية التاريخي من جليم حتى شاطئ الشاطبي، وهناك دخلا أحد الأماكن الجديدة، ونزلا لشاطئ البحر، وجلسا في هذا المقهى المدعو كافيه.

وهما يواجهان أمواج البحر...

الشلتات لم تكن مريحة، وبالذات للدكتور مصطفى؛ فطلبا من المضيف أن يوفر لهما ترابيزة بكراسي مريحة ووضعها لهما في نفس المكان، دقائق وكانت أمامهما كأسان من الليمون المخلوط بالنعناع اللذيذ....

- أنت فاكر يا عمر أنك الوحيد الحزين واللي مالوش نفس يعيش أساسًا...

لا فيه كتيررر عندهم نفس إحساسك، بس بيقاوموا، وبيحاولوا يعملوا نفسهم مبسوطين مع أنهم مهمومين....

- يعني يا دكتور عايز تقنعني أن مش كل الناس اللي بتضحك دي سعيدة...

- لا طبعًا... السعادة شيء نسبى...

مش معنى أنك تضحك تبقي سعيد...

فيه وجوه ضاحكة باكية...

مش في المسرح بيدرسوا تعبير الوجه...

ساعات الابتسامة بتمنع دمعة تسقط من العين...

وبمناسبة السعادة....

الفقير يقول: أكيد السعادة في الفلوس، اه لو معايا بيوت وعربيات وفلوس كنت هكون أسعد إنسان في الدنيا....

والغني يقول: أكيد السعادة في الصحة..

شوف الفقير ده مافيش معاه فلوس وعيشته صعبة، بس قادر يأكل فول وطعمية ومعدته بتهضم الزلط...

كل واحد بيشوف السعادة ملك للآخرين، وبيعتبر أنه بيمتلك كل شيء ماعدا السعادة....

كلهم عندهم حق...

السعادة صعب تحس بيها جدًا.... مهما اتفلسفنا وقلنا معاني كتير ليها....

- طيب وإيه معناها بالنسبة لك يا دكتور..

- الرضا...

الرضا يا عمر.....وراحة البال...

لو قدرنا نوصل لمرحلة الرضا...

بس مش بالكلام..لأ بالإحساس الفعلى...

لو الرضا تمكن من قلوبنا هنرتاح....ولو ارتاحنا هنشعر بالسعادة المفقودة...

- يعني السعادة عندك (رضا - راحة بال).... بس!!!

- فعلًا السعادة عندي رضا وراحة بال....

لكن إزاي نقدر نوصل لمرحلة الرضا...

دي مرحلة صعبة جدًا ومتقدمة في درجات الحس الإنسانى...

برضه أرجع وأقولك إن الرضا درجاته نسبية....

ممكن تكون راضي عن نفسك بس مش راضي على الوضع اللي إنت فيه....

قيس على كدة بقى....

مين يقدر يوصل للقناعة الكاملة بالرضا؟؟..

أعتقد ده هيكون أرقى مراحل الاتزان النفسي، وأكيد هيوصل لراحة البال..... نفسي أحط دماغي على المخدة أنام على طول بدون تفكير....

- حاولت تعمل كدة يادكتور.....

- هههههه...حاولت كتيررر، وفشلت طبعًا....

كنت ساعات بقول في سري: مش عايز أفكر...مش عايز أفكررر...

وبكتشف أني وأنا مغمض عينيا بفكر أني إزاي أمنع نفسي من التفكير... هههههههه.....

- لاااااا دكتورررررر أنا مش ناقص دربكة مخ....كتر خيرك.. هههههههه.

- أيوة كدة أضحك يا عمررر...

داري أحزانك بالضحك وبابتسامة...

مش لازم كل الناس لما تبصلك تقرأ اللي في عينيك...

بلاش تكون واضح جدًا كدة...

ربما مع الضحك وفردة الوجه تلاقي كتير من الأحزان بتتنسى.....

أهو أنت نسيتني أقولك إن من أهم نعم الله على الإنسان نعمة النسيان.....

لو قدرت تنسى...ممكن توصل للرضا المطلوب، ومنه لراحة البال....

بس تنسي مش تتناسي، وأول لما يحصلك موقف محزن تستدعي كل أحزانك اللي متخزنة في عقلك الباطن !!!.....

- طيب أنا وحكيتلك يا دكتور....مش عارف ليه حاسس إن وراك حكاية كبيرة...صح؟

- صح....كلامك صح ماقدرش أنكر....

كل واحد جواه حكايات مش حكاية...

سبحان الله اللي بيحرك مليارات البشر بكل حكاياتهم ومشاعرهم....

متخيل حجم القدرة.....سبحان الله.....

- طيب ماتحكي أنت كمان يا دكتور، هو مش إحنا بقينا أصدقاء....

- هههههه طبعًا أصدقاء...

من زماااااااان ماحكيتش....

صاحبي الوحيد اللي كنت بحكيله وبيحكيلي هاجر من زماااان....

عارف بعد ماساب البلد وهاجر..حسيت إن فيه حاجة غلط...

لأ مش حاجة...حاجات كتيررر...

حاول معايا كتير إني أسافر أزوره، ولو عجبني الجو أهاجر أنا كمان....

إزاي أقدر أسيب الإسكندرية وأهاجر، حتى لو كنت هروح أعيش في الجنة....؟!

فاكر لما قلتلك المواجهة قوة، والهروب ضعف.....

هو هاجر يعني من وجهة نظري هرب وسابنا....

ضعيف ما استحملش اللي حصل له يوم جمعة الغضب.....

- وبعدين بقى....أنت كل شوية تشوقني لموضوع جديد....إيه اللي حصله في جمعة الغضب...

- الأول أنت عارف يعني إيه جمعة الغضب...

- طبعًا يا دكتور....عارف طبعًا...هو ده يوم يتنسى...ده من أسود الأيام في تاريخ مصر الحديث....٢٨ يناير ٢٠١١.....

- صحيح....كلامك صحيح....

كان عايش في القاهرة في الوقت ده...في الدور الرابع في عمارة قريبة من قسم شرطة...

شقته كانت كلها بانوراما وشايفة سطح القسم من بعيد....

بعد صلاة الجمعة كانت الأمور هادية...

على الساعة خمسة بعد العصر وقبل المغرب بدأت تجمعات كبيرة تتحرك في الشوارع، وتنادي على الناس اللي واقفة في البلكونات (انزل...انزل...)...

كانت مسيرات سلمية من السكان، بس طبعًا كان الأشرار مندسين بيسخنوا في الناس، وبدأت هتافات عالية تزلزل الشوارع...

طلع صاحبي في البلكونة، وهو حد مسالم جدًا على فكرة...

طبيب... مالوش في السياسة ولا وجع الدماغ... وعايش كافي خيره شره....

شوية ولقي حشود كبيرة متجهة لقسم الشرطة، وبدأت اشتباكات بالطوب، وشوية وصوت خرطوش، والعساكر فوق سطح القسم بتحاول تنادي على زمايلهم، وبتستنجد بالظباط....

شوية واللي كانوا بيهاجموا القسم بقوا فوق السطوح، وبيولعوا نار، ويرموه على العساكر والظباط، وبدأ اشتباك وصوت طلقات رصاص وصريخ وناس راجعة تجري وبتقول: القسم أتدمر، واللي هجموا عليه شوية بلطجية، وهيخلصوا ويطلعوا البيوت...كل واحد يحافظ على مراته وولاده...

صاحبي خاف على ولاده...كانت عيلته هنا في الإسكندرية، وعيلة مراته ساكنة في منطقة بعيدة عنه، والتليفونات فصلت شبكة...

الحقيقة كان قرار خاطئ جدًا قطع الاتصالات عن القاهرة الكبري في اليوم الأسود ده...

المهم...نزل بسرعة هو وزوجته وولاده، وركب عربيته، واتجه للدائري؛ لأنه الطريق الوحيد اللي يوصله لعيلة مراته في القاهرة برضه....

بمجرد ماطلع الدائري شاف الأهوال....عربيات محروقة ومقلوبة... المهم وهو في الطريق لقي عربيات بترجع عكسي، والناس بتصرخ وبتقول البلطجية بياخدوا الستات والفلوس.....

يا نهار أسود... الراجل مابقاش عارف يعمل إيه...ده ساب البيت لما سمع نفس الكلام....

فكر ولف بالعربية كان عايز يرجع مع اللي راجعين...

بص لقي عربية بتتقلب على مسافة كيلو منه وناس كتيررررر قطعت الدايرى....

لف تاني ورجع في اتجاه ما كان رايح، وشاف عربيات محروقة على مسافة ٢ كيلو قدامه تقريبًا في المكان اللي قالوا عاملين فيه كمين، والبلطجية بياخدوا الستات والفلوس...أخد القرار.....

– قرار.....!! قرار إيه كمل يا دكتور؟أوعي تبطل كلام أبوس إيديك... إيه اللي حصل لصاحبك وأسرته....؟

***

(١٥)

عادت أم حسن لبيتها الكئيب، ومازالت تفكر في هذا الشاب البائس الوحيد...

يشغل بالها إهماله لنفسه، والقاذورات التي كانت تملأ شقته.

قد أشقاها العمل عنده، ولكنها رأت أنه فرصة ذهبية، وسمكة كبيرة تستطيع أن تصطادها ولِمَ لا.....؟!

خيالها صور لها عدة مشاهد كان أصعبها أن تستولي عليه هي بنفسها، وتضمه بين أحضانها، وتصبح سيدة البيت...

لكن كيف وهي في هذا العمر..

نعم هي مازالت تحتفظ بأنوثتها تحت ثوبها الفضفاض، ولكن تجاعيد الزمن الصعب حفرت بخطوطها العميقة على وجهها؛ فتحول إلى خريطة من التجاعيد ترسم شقاءها في العمل عند ربات البيوت وفي تنظيف المنازل ..... زادها سنوات فوق عمرها....

أعادت ترتيب أفكارها، ولِمَ لا تربطه بإحدى بناتها وهو وحيد.. زاهد في الحياة.....؟!

لم تنتظر كثيرًا حتى استقبلت مكالمة تليفونية منه يطلب منها الحضور في الموعد الأسبوعي لتنظيف الشقة..

بالطبع تهللت أساريرها، وجهزت أبهى ثيابها..

انطلقت في الموعد المحدد، ورنت جرس الباب، ففتح لها كالمرة السابقة مغمض العينين حتى أنه لم يكد يراها...

تصعبت وتنحنحت، ولكنه كما جاء ذهب لغرفته، وألقى بجثمانه على السرير..

غط في نوم عميق سمعت شخيره من المطبخ؛ فضحكت ضحكة عالية اهتزت لها الأواني بالمطبخ..

غيرت ملابسها، وتحررت من كل ما هو أسفل جلبابها الخفيف الشفاف..

لِمَ لا؟! فهي الآن وحيدة بالشقة؛ وهو نائم يأكل الأرز مع الملائكة...

رغم رغبتها الملحة في استيقاظه، ورؤيته لما هو موجود أسفل الجلباب؛ لعله يحن....

ويروي ظمأ شجرة التين العتيقة.....

فإنه لم يحدث ما كانت تتمناه...

دخلت عليه غرفته، وافتعلت كركبة مقصودة أثناء التنظيف، ولكن هيهات هيهات؛ فلم يتحرك له جفن....

وجدت أجرها موجودًا تحت البنبونيرة أعلى السفرة...

غادرت ولم يستيقظ....

عادت كما جاءت صفر اليدين.....

***

(١٦)

نجحت خطة ناني في ابتزاز زبائنها من الرجال والنساء.

كونت ثروة في زمن قصير، وعاطف لم يعد ينظر إلى المرآة؛ فكلما نظر استرجعت ذاكرته مشهد الصحفي عبد الدايم وهو ينظر للمرآة في الفيلم الخالد (القاهرة ٣٠) ...

لم ينجُ الرجال من فعل الشيطانة...

بل نجحت في الحصول على المزيد من الصداقات، التي يكون مبتغاها الوصول إلى غرفة المرسم. غرفة عملياتها...

فيها تذوب الأجساد، وتنحني الرؤوس، وتنهار دفاعات الضمائر، وتتهاوى القيم والمبادئ، وتُسلب العقول، وتظل الأجساد العارية فريسة لكاميرا مساعد الشيطانة؛ فتنهش في أعراضهن، وتزيل البراءة عن جلود لحومهن ....

يتحول الأقوياء إلى ضعفاء.... الشهوة... الرغبة... مهلكات كل العصور..

نقاط الضعف التي تُحني القامات.... وتتهاوى بسببها العروش.....

***

(١٧)

- نسيت أقولك إن صديقي كان مرخص سلاح.. كان بيحب الرماية جدًا..

علّمه ضابط صديقه.. كانوا بيتمرنوا في نادي الصيد لما يكون عندهم وقت...

هواية غريبة بس أكيد كانت بترضي غروره...

كان نفسه يدخل الكلية الحربية، بس كان لابس نظارة ماكنش ينفع يعدي الكشف الطبي..

تخيل كان جايب مجموع كلية الطب، لكن حب الوطن والانتماء للبلد كان كل حياته، اللي للأسف شباب كتير بيفتقده دلوقتى.. ممكن يكونوا معذورين..

الإعلام كان ليه عامل كبير في إرساء المبادئ والقيم وحب الوطن والانتماء.. وبرضه الإعلام كان السبب خلال فترة كبيرة في العكس..

يمكن أنا بظلم الإعلام...

ويكون السبب الانفتاح على العالم الخارجي والتطور التكنولوجي الرهيب ووسائل التباعد الاجتماعي المنتشرة هي اللي وصلت الشباب لكدة..

بس برضه كان لازم الإعلام يسيطر على عقولهم ويوجهها للصح..

أعتقد بدأنا من فترة في تعديل المسار، وإن شاء الله يقدروا يرجعوا للشباب ولكل الأجيال فكرة حب الوطن والتفاني من أجله...

أنا متفائل جدًا بالمرحلة دي وقيادتها اللي بتبني وبتعمر..

فيه إنجازات كتير جدا اتحققت خلال فترة زمنية قصيرة..

بداية لمرحلة ازدهار إن شاء الله.. لكن ده مش معناه إن اللي قبلهم ماعملوش حاجة...لأ طبعًا..

كل مرحلة ولها رجالها الأوفياء.. أنا متأكد إن الجميع سواء الحاضرون أم السابقون كلهم بيحبوا مصر.. وكلهم ليهم بصمات إيجابية في البلد .....

- تمام بس قولي إيه هو القرار اللي أخده....

- هو طلب من زوجته وولاده يقولوا الشهادتين، ويتوكلوا على الله.

سأل ولاده في العربية إنتوا رجالة...

الولاد كانوا صغيرين بس رجالة...نطقوا في نفس واحد...طبعًا رجالة يا بابا، توكل على الله....

- كمل من فضلك..

- بدأ يقرب من كمين البلطجية، وأخد يسار الطريق بحيث بقت الحواجز الخرسانية ملاصقة للعربية، وشغل إشارات الانتظار.... وهدى السرعة.....

كان شايف قدامه مئات من البلطجية.

اللي ماسك بندقية خرطوش، واللي ماسك سيف، واللي ماسك جنزير، وكل أشكال الأسلحة كانت واضحة، أشباح تحت ضوء نيران السيارات المشتعلة بجوارهم ...

- القرار... القرار الصعب كان اااااايه.....؟!

- القرار الصعب اللي محدش عرفه غيري أنا بس ...

قرار مش آدمي ولا طبيعي، لكنه كان هينفذه..... قرار مستحيل ...

- تصدق يا دكتور إنك بتلعب بأعصابي، وأنا مش ناقص.....

- المشكلة إني لما بفتكر الحكاية دي جسمي بيقشعر وبتوتر جدًا....

- الحقيقة أنا اللي متوتر، وعايز أعرف اااايه القراااار....

- القرار إنه طلع مسدسه، وكان في الخزنة ١٥ طلقة، وقرر إنه لو اتمسكوا في كمين البلطجية.

أول طلقة هتكون في دماغ زوجته.....

عرفت بقي مش قادر أقول لييييه...

مش متخيل بني آدم طبيعي يقدر يفكر كدة...

لما كان بيحكيلي لما اتقابلنا وقبل سفره كانت الشرارة بتطير من عينيه...

مشهد مرعب جدًا ...

تخيل إنك بزوجتك وولادك في عربية، وداخلين على كمين بلطجية في عدم وجود دولة، وفي ظل انهيار جهاز الأمن اللي هو الشرطة.

الأمور كانت مرعبة جدًا في الشوارع، والسيطرة أصبحت للبلطجية، وهيعملوا معاكم اايه لما يقبضوا عليكم....

وكان لسه قوات الجيش مانزلتش للشوارع في التوقيت ده، لولا الجيش بعد كدة كان البلطجية والمجرمين فرضوا سيطرتهم على البلد ...

الله سلم ... الحمد لله ...

- كمل الحكاية...

- دخل ببطء، وبدأوا يخبطوا بالسيوف والجنازير على الحاجز الخرساني والأرض في إشارة واضحة منهم بأوامر أنه يتوقف....

وفي اللحظة الحاسمة، وقبل ما يوصل بعشرين متر ضغط على دواسة البنزين بكل ما ربنا أعطاه من قوه، وكان المسدس في إيده اليمين، وسانده بفخذه اليمين....

انطلق بقوته بيصطدم بالحواجز العشوائية من الحجارة والأخشاب، وماشفش هو عمل اايه...

كل اللي كان شايفه وسامعه أصوات اصطدامات وتكسير، وحشرجة من موتور العربية، وزجاج العربية الخلفي وكل الجانبي بيتطاير، وولاده بيصرخوا معاه في نفس واحد (الله أكبر... الله أكبر)..

وفجأة اخترق الزجاج الأمامي حجر كبير دخل به أحد الأشخاص، وكأنه آلة رجم رومانية اللي كانوا بيسموها المقلاع....

للأسف الحجر الكبير اخترق الزجاج، وأطاح برأس زوجته، اللي اترمت على رجله ونافورة دم انفجرت من وجهها، أحس بسخونته ولزوجته على فخذه؛ فضمها لصدره وهو يكمل الملحمة.....

بعد ثواني كان عدى الكمين، والعربية شبه بتقطع، ولكنها مازالت ماشية....

ولاده كانوا بيصرخوا فيه (كمل يا بابا)..

بعد حوالي كيلو تاني كان فيه كمين بلطجية تاني عدده أقل، بس لما شافوا العربية متكسرة فتحوا الطريق من غير مايوقفوهم ....

عرف يوصل لغاية فيلات القطامية على الطريق الدائري، كان فيه واحد صاحبه ساكن هناك...

نزلوا واستقبلوهم وزوجته بتنزف بشدة..

وولاده أخدوا كدمات متفرقة وخدوش من الحجارة اللي اتحدفت عليهم وشظايا زجاج العربية...

الحمد لله إنه كان سليم، وعرف يعدي ...

المهم كان فيه طبيب ساكن هناك استدعوه، وعملوا المستحيل علشان يوقفوا النزيف، وماعرفوش ينقلوها لمستشفى إلا لما الجيش نزل الشوارع، وعرف يسيطر على البلطجية جزئيًا في الليله الكئيبة دى.

وصلت المستشفى الساعة تمانية الصبح يوم تسعة وعشرين....

فضل معاها في المستشفى كتيررر. كان عندها كسور في وجهها وأعلى الجمجمة، وتشوهات فظيعة في الوجه، وتهتك في العين وكسر بالأنف....

متخيل حجم الكارثة.....

– يا ستاااااررررر ياااااا رررررب .....

– طبعًا بعد الحادثة دي كان لازم يعيد النظر في وجوده هو وأسرته هنا في مصر. حاولت معاه كتير..

قلتله ارجع عيش معايا هنا في الإسكندرية..

برضه رفض. أخد زوجته وولاده وسافر....

لأ. هاجر.....

حاول ياخدني معاه.

بس أنا زي ما قولتلك. ماقدرش أغادر الأرض دي.

مش برضه السمك اللي في البحر لو طلعته يموت.

أنا كدة لو سيبت البلد دي أموت.

أنا زي السمك بالظبط. إسكندراااني بقي هههههههه.

– بس صاحبك ده أثر فيك أوي يا دكتور. ده كان غالي عندك جدًا.

– طبعًا. كان صاحبي وأخويا، والوحيد اللي كنت بفضفض معاه ...

كان كل اللي باقي في حياتي بعدما أمه سابتنا، وسافرت، وابني الصغير كمان سابني وسافر... اللي بحكيلك عليه ده يبقي ابني الكبير.....

– يااااااااه. ده مش صاحبك. ده ابنك. أنا اااسف إني خليتك تفتكر الحادثة دي لابنك. هو ممكن أكون متطفل، وأسألك والدته سابتكم وسافرت فين؟!

- لا، ولا متطفل ولا حاجة، يا عمر.

والدته دي كانت حب عمري كله. العشق كله. قول زي ما تقول.

ولما زارها المرض اللعين الخبيث..

سافرت حبيبتى... الملايكة جت، وأخدتها من بين أيديا.

لبسوها جناحين لونهم أبيض، وطاروا بيها في السما.

كانوا بيزفوها. الله يرحمها كانت كل حياتى.

عرفت بقي أنك مش لوحدك اللي حزين.

- طيب ما تحكيلي أتعرفت عليها إزاي، وحبيتها إزاى.

- هقولك حاجة هتعرف أنا بحبها وبعشقها إزاي، وكان النفس اللي بيخرج منها هو الهواء اللي أتمنى أتنفسه... في يوم رجعت البيت من الشغل بالليل متأخر، وكانت كعادتها منتظرانى... أصل هي كان مستحيل تنام إلا في حضنى.. لقيتها تعبانة، ونفسها ضيق.. حاولت أخدها المستشفى رفضت... المهم جهزت العشاء، ودخلنا ننام...هي نامت... أنا فضلت صاحي أراقب تنفسها... حتى لما عيني غفلت كنت كل شوية أصحى أطمن أنها بتتنفس... كنت بدعي ربنا، وأقوله مش هقدر أعيش من غيرها... ولما صحيت كويسة... ردت فيا الروح... مهما حصل بينا من مشاكل أو زعِلْت منها في حاجات، لكن روحي وروحها دابوا في بعض من زماااان، ويمكن التقطتهم الطيور، ودخلوا جوه طائر جميل بيرفرف بجناحاته.... وكل لما يطير ويرفرف....قلبي يرفرف... حتى بعد لما سافرت.....قلبي بيرفرف يا عمر....

وهختصرلك الحكاية في كام جملة كنت كتبتهم وهي نايمة على سرير مرضها الأخير.

أنا محتفظ في المحفظة بورقة مكتوب فيها آخر جملة كتبتها علشانها.

- ممكن تقرأها من فضلك. ده لو مش هتضايق طبعًا.

- لا أبدًا. حاضر هطلعها حالًا. بس ممكن نقعد أنا تعبت.

- أتفضل.

أخرج محفظته، وتسللت منها ورقة صفراء قد عفا عليها الزمن.

أو ربما من كثرة قراءتها وطيها أصبحت قديمة، وتشابهت تجاعيدها مع تجاعيد وجهه معبرة عن مرور زمن طويل وهما معًا.

- أنظرلحبيبتي وهي نائمة بجواري، وأضع يدي على صدرها بعد مجهود خارق؛ فأحس بسريان دفءالشباب يسري في جسدي الهزيل..

أتشبث ببقايا قوتي التي خارت؛ حتى أصل إليها، فأضع رأسي على صدرها، وأسمع نغمات دقات قلبها.

مثلما كنت أفعل دائمًا وأنا شاب.

فحبيبتي لديها دقات قلب تختلف عن الجميع، فلديها دقات غير منتظمة، تعطيني إيحاء بأنني أستمع لمقطوعة موسيقية من تأليف رب العباد.

أحب سماع دقات قلبها... كما أحب مراقبتها وهي نائمة...

كانت عادتي عندما أستيقظ ليلًا أو صباحًا أن أراقب وجهها الجميل المحبوب؛ فهي اسم على مسمى...

مازال وجهها ملائكيًا كما كان. عيناها مغلقتان، ولكني دائمًا ما أرى ننها وهو يتحرك خلف الجفون ورموشها متشابكة كأغصان الياسمين.

ابتسامة لا تفارقها حتى أثناء نومها. أعشقها.

أعشق ابتسامتها وهي نائمة كما أعشقها وهي مستيقظة.

أعشقها. كلمة قليلة على حبيبتي. فهي حياتي. لا أستطيع فراقها.

دائمًا ما أطلب من الله أن يجعلها معي حتى آخر نفس في حياتي. لا، بل أكثر من ذلك.

أشك أنني أستطيع إفلات يدي من يدها. أحلم أني أرجوها ألا تتركني وحدي.

حتى في قبري....

أحس بالأمان في رفقتها، وأحس بالضياع والخوف عندما تبتعد.

أصبحت ملتصقًا بها، وأنا أعلم أنها ربما تكون قد خارت قواها، ولم تعد تتحملني، ولكني أجدها بجوارى.

كنت أتباهى بجمالها، ولكني كنت أغضبها كثيرًا، وهي لا تعلم أنني لم أحب سواها، فقد أحببت التراب التي كانت تسير عليه.

هي لا تعلم سر توجيهي لها في رسائلي القديمة بلفظ أنتي وليس (أنتِ)، فقد كنت أخشي أن أكسرها حتى في سطور رسائلي، (وقد رسخ هذا التعبير في ذهني بعد أن اقتبسته مما كنت أستمتع به من كلمات الأديب إحسان عبدالقدوس ... ومن قبله العملاق الأديب عباس محمود العقاد).

لكني أحيانًا ما خدشتها. أغضبتها..

ولكنها أبدًا لم تغضب، بل كانت تمتص غضبها، وتدمجه مع جمال روحها؛ فيصير إكسيرًا يغير بعض ملامحها الصامتة ...فأحسها...

وبلمسة حانية وكلمات رقيقة تعاتبني..

رغم ذلك أطلب منها الاعتذار؛ فتعتذر ... أي ملاك كانت حبيبتي ...

لم أكن أطلب الاعتذار نوعًا من الجبروت والعند..

بل كي أسمع رقة تبختر الحروف وهي تعبر فوق لسانها وتنطقها شفتاها ...

ووجهها الملائكي يتحول لتقاطيع طفلة صغيرة، فتغلق عينيها وتطبع قبلة على جبيني ... فتنحني رأسي على صدرها، فأسمع نغمات دقات قلبها المختلفة مع هذا الموقف؛ فأستمتع بها.....

حبيبتي خط أحمر في حياتي.....

رفيقة دربي وبلسم جراحي. رفيقة كفاحي في رحلة عمري كلها....

صمدت وفرحت وغضبت....

أضحكتها وأبكيتها، ولم تتركني لحظة....

لاحياة بدونها. ولاموت إلا على صدرها....

حقك عليا مش هقدر أحكيلك أي حاجة عنها أكتر من كدة....

الله يرحمها....

بعد لما كتبت الكلمات اللي أنت سمعتها مني بدقايق. إيديها سابت إيديا.

كان نفسي أسافر معاها. قعدت أكلمها كتير، وأقولها: خديني معاكى. هتسيبيني لمين؟ هعيش لوحدي إزاي من غيرك؟!

بس ما سمعتش كلامي، وزي ماقلتلك زفوها بجناحات بيضاء.....

شفت نورها بيطلع لفوق لفوق لفوق. لغاية لما بقي نجمة في السماء....

مكان النجمة اللي كانت بتحبها....

كان ليها نجمة معينة. أول نجمة بتظهر في السماء بعد المغرب. كنت بلاقيها مركزة دايماً معاها وكأنهم بيكلموا بعض....

ماكنتش عارف إنها كانت بتناديها، وأنها رايحة تنور السماء بدالها. شوفت بقى..

قولتلك مش هحكيلك عنها بس سيرتها هتاخدنى.....

وشكلي أنا اللي هحاول أسافرلها دلوقتى.

- لاااااااااا أبوس أيدك يا دكتور. كلامك رااائع، بس أوعي تعملها؛ ده أنا ما صدقت لقيت أب وصديق أقدر أتسند عليه ... بس بجد ... الله. الله عليك يادكتور. اااايه ده... إيه الكلام الجامد ده ....

طيب لو تطفلت أكتر وأكتر، وحبيت أعرف ابنك الصغير سافر ليه؟!

- ياااه يا عمر... إنت بتقلب المواجع كلها في وقت واحد ...

لكن مافيش مانع اختصرلك قصة سفر ابني الصغير في كلمتين ... (سرقوا حلمه)

- يعني إيه يا دكتور ... سرقوا حلمه ... هو الحلم بيتسرق؟ ! ... الحلم إما يكون حلم زي أي حلم بنحلمه وإحنا نايمين، أو وإحنا صاحيين ويروح لحاله ... أو حلم محتاجين نحققه وبنسعى إننا نوصله ... لكن ماسمعتش عن حلم بيتسرق !!!

- طيب يا سيدي ... إنت بقيت أحسن مني بكتير في الطب النفسي ... هههههه ... بتستفزني علشان أحكيلك ...

الولد كان مهتم جدًا بالرياضة، وبيحبها من لما كان عنده ٥ سنين ... كرة القدم بقي يا سيدي ...

أنت عارف إن معظم الشعب بيحب اللعبة دي طبعًا ...

طارق كان متفوق جدًا في مركز معين فيها، وسخر حياته بالكامل للعبة دي ...

كانت تقريبًا هي كل حاجة عنده ...

مافيش خروج معانا... مافيش مصايف... مافيش أكل إلا بحساب ...

مافيش حتى أصدقاء وخروج ...

كل وقته تقريبًا كان بيقضيه إما بيتمرن، أو بيراجع فيديوهات علشان ينمي نفسه، أو في الجيم علشان يكمل تمرين ...

شجعته كتير، وجبتله مدرب خاص وهو ٥ سنين، علشان كنت شايف وحاسس بالموهبة اللي عنده ...

ما هو أنا كنت لعيب جاااامد خلي بالك هههههههههه ...

بس الحقيقة طارق كان أحسن مني بكتير جدًا ...

طارق كان واخد الموضوع جد من أوله ...

لما وصل ٦ سنين أخدته يختبر في نادي كبير في اللعبة، وسبحان الله قبلوه من أول اختبار ...

مشكلته إن المركز اللي بيلعب فيه لازم واحد بس منه في الملعب، وكان في نفس سنه، ولد ابن مدرب في النادي ...

طبعًا أنت فاهم اللي كان بيحصل ...

كان دايمًا بيصدروا لطارق إن زميله عنده موهبة فطرية مولود بيها ...

الحقيقة الولد كان كويس بس هما كانوا بيزودوها ... أكيد طبعًا علشان زميلهم ... طارق كان مقاتل شرس ... كل لما يحبطوه كان بيزيد إصرار وعزيمة...

كنا متفقين أنا وهو أنه زي القطر لا يقف ولا يبص وراه ...

حطينا خطة مستقبلية مدروسة، وكانت أحلامه مترتبة حسب المراحل السنية وبطولاتها ...

اجتهد جدًا، وكان بيحارب الظروف اللي هو فيها بوجود المنافس اللي معاه، وهيستمر الوضع كتير ...

لما كان عنده ٩ سنين الفريق الأكبر منه هيسافر بطولة خارجية ...

المدرب كان محترم ومحايد ... طلب يضم طارق لفريقه في البطولة ...

مش هقدر أوصفلك الحرب اللي أتعملت على الولد، وعليا أنا شخصيًا، وقلبوا الحكاية وعملوا إشاعة إن رئيس النادي صديقي، وبيتعالج عندي مجانًا هو وأسرته، وحكاياااات وخزعبلاااات ...

الأسوأ إنهم فضلوا يضغطوا بعد البطولة دي على طارق ...

كل مرحلة سنية بيستلم مدرب جديد ... طارق يلاقيه بيعامله وحش، ونكتشف إن فيه حكايات مغلوطة بتتحكي بنفس الطريقة ...

عارف لما يكون واحد كداب بيكدب كدبة وبعدين يصدقها ...

أو واحد على راسه بطحة زي المثل لما بيقول، ويحاول يصدر فكرة إن البطحة دي على دماغ حد غيره ...

مشوار طويل جدًا طارق مشي فيه ...

كبر طارق، وبدأنا في مرحلة المنتخبات والبطولات الكبيرة ...

طلبوه في المنتخبات الأكبر من سنه، وده أعطاه أمل كبير في أنه هيحقق أحلامه ... مش هطول عليك ...

طارق جه في وقت اتنازل عن عقود ناديه الكبيرة، وفضّل إنه يخرج إعارة لأندية تانية بدون مقابل ... في سبيل أنه يطور من نفسه وياخد خبرات علشان كان فيه بطولة مهمة جدا هتتلعب بعد ٣ سنين ...

اتبهدل بصراحة ٣ سنين، وأهمل دراسته، وكان في السنة الأولى بيسافر كل يوم حوالي ٣٠٠ كم رايح جاي علشان يتمرن ويلعب في الدوري العام للكبار...

والسنة التانية والتالتة راح عاش في مدينة بعيدة عننا ... إقامة كاملة لوحده ...

كان بيرجع بس علشان يمتحن في الجامعة، وربنا وحده يعلم كنا بنعمل إيه علشان ما يتفصلش من الجامعة ...

اللي كان مشجع طارق ومصبره أنه متفوق، وكل المباريات والمعسكرات التجريبية والمؤشرات بتقول إنه هيلعب البطولة ...

وإحنا في الطريق للبطولة ظهر ابن نائب رئيس النادي الأساسي، وكان بيلعب في نفس مركز طارق ...

بدأت حركات خفية تحصل علشان يسكنوا الولد الصغير، ويبعدوا طارق عن ناديه الأصلي ... نجحوا طبعًا ...

ده ابن نائب رئيس النادي والرجل القوي ...

طيب ما هو طارق انضم لنادي تاني في الشهور اللي قبل البطولة مباشرة، وبعد عن ناديه الأصلي وريح الجميع ...

كان عند نائب رئيس النادي مشكلة ...

لو طارق لعب البطولة ... ناديه الأصلي هيطلب استعادته؛ وكدة ابنه مش هتكون عنده الفرصة ...

بدأ باتصالاته وقوته يبعد الأضواء عن طارق في محاولة لهدمه ...

الولد كان صلب بصراحة، وصمد صمود الأبطال ...

عملوا كل اللي يقدروا عليه علشان يوقفوه ويحبطوه، وطارق مكمل بقوة...

لغاية قبل البطولة بشهر ... حصلت حاجة غريبة ...

ناديه الجديد بدأ يعتمد على بديله رغم إن طارق كان الأساسي، وكان بيستميت في التمرين، وبلغهم أنهم هيتسببوا في تحطيمه، وفاضل شهر واحد على البطولة ...

كل محاولاته معاهم فشلت ... مدرب المنتخب حذره أكتر من مرة ...

لو ماكنتش بتلعب في ناديك مش هتلعب البطولة ... كلام صريح وحقه...

مين اتكاتف مع مين؟ ... مين خطط مع مين؟ ... الله أعلم ...

بعد معسكرات وبهدلة ٣ سنوات وقبل البطولة بأسابيع ضموا لاعب جديد في نفس المركز، وناديه والقدر ساعدوه ولعب ١٠ دقايق في مباراة مع ناديه قبل البطولة ... تخيل بقي إيه حصل ...

جه يوم البطولة، وفضل المدرب مخبي التشكيل لغاية قبل المباراة بساعتين وكانت المفاجأة ...

طارق احتياطي للاعب الجديد ... ده مش معناه أن اللاعب الجديد مش على المستوى أبدًا ...

لكن ده حق طارق ... أخدوه منه ... سرقوه منه ... المهم مين أخد اللقطة...

حصل معاه زي اللي واقف في طابور طويل جدًا، وأول لما قرب من شباك المكان يلاقي مدير المكان واخد واحد لسه واصل وبيقدمه عليه ... شعور محبط ...

أو زي سباق ماراثون ٣٠ كم، والأول طلع عينه، جري المسافة كلها، بس اللجنة عايزة واحد معين يكسب؛ فركبته عربية، وقبل السباق بكيلومتر نزل، وجري ودخل أخد حق الأول ... إحباط كبير ...

بعد لما البطولة خلصت، قرر أنه يسافر يلعب بره ...

هو هناك بقى له سنين بيلعب وبيجتهد ومافيش رئيس نادي وابن نائب رئيس نادي والكلام ده ...

بياخد على أد ما بيدي ... مافيش توريث ومواريث في العمل ... المجتهد بياخد حقه ...

مشكلته معايا أنه فقد الإحساس والاهتمام بينا هنا ...

ماقدرتش أساعده، وده سبب عندي مشكلة نفسية وجرح عميق ...

اجتهد كتير واتظلم كتير ... ربنا معاه ...

عرفت يعني إيه (سرقوا حلمه) ...

زي أحلام كتير بتتسرق من شبابنا تحت مسمى المحسوبية والواسطة والمعارف وخلافه ...

علشان نقدر نتقدم وننجح لازم تتمنع التوصيات والمجاملات والوسايط...

هو مش الشعب ده كان بيطالب رئيسه السابق بعدم التوريث ...

إحنا يا عمر بنلاقي في كل وظيفة وكل مكان وحتى الرياضة كل واحد عايز ابنه ياخد مكانه بغض النظر عن كفاءته أو وجود اللي أحسن منه ...

إحنا شعب بيناقض نفسه... بيحلل حاجات لنفسه، ويحرمها على غيره...

بس ده برضه مايمنعش مسئوليتنا في مواجهة الشر بالخير واليأس بالعمل والإحباط بالانتفاض والاجتهاد ...

لأن مهما حصل أكيد ربنا مش هيضيع تعب حد ...

ده الملخص يا عمر....

بذمتك مش إحساس صعب لما تلاقي نفسك مش قادر تساعد ولادك إنهم ياخدوا حقهم بعد اجتهادهم ... تخيل نظرة عينيهم ليك ...

مش أنت اللي كنت بتحرمنا من كل حاجة، وتقولنا اشتغلوا واجتهدوا واسهروا واتعبوا علشان تحققوا أحلامكم ...

أنا تعبت ...

فيه وقت يا عمر مهما كانت قوتك وصلابتك بتحتاج حد يطبطب عليك...

لما كل الناس اللي تعرفك فاهمة ومتأكدة أنك شخصية قوية وجامد وقادر على معالجتهم، وقادر تعمل كل حاجة ...

لكن أنت الوحيد اللي حاسس بنفسك من جوه ... عارف إنك محتاج لمسة حنينة ... مسحة إيد على راسك ... حضن دافي ... كتف تحط دماغك عليه وتبكي ... تخيل لما تبقي من أمنياتك إنك تبكي ... عينيك تنزل دموع...

أهو موضوع طارق ده خلاني ساعتها آخد العربية، وأجري بسرعة وأنا بسمع أغنية أنا ابن مصر اللي بيغنيها الفنان مدحت صالح والفنان العسيلي، ودموعي كانت بتنزل زي المطر ... مش أنتوا في القاهرة بتقولوا على الشتا مطر برضه؟!...

- واضح إن كل واحد في الدنيا عنده حكايات تنفع تتكتب روايات ...

أنا كنت فاكر إني لوحدي اللي جوايا كراكيب ... الله يكون في عونك ... دي حكاية تحرق الدم ... لكن جملتك الأخيرة عجبتني جدًا ... لازم نواجه الشر بالخير، واليأس بالعمل، والإحباط بالانتفاض والاجتهاد... لكن قولي من فضلك إتعاملت مع الموقف ده إزاي يا دكتور...

- يا عمر عايز أقولك جملة احفظها كويس.. هتنفعك كتير ... (ركز عينيه على عيني عمر، في نظرة يقين، وصمت للحظات قطعها عمر باستعجال لسماع الجملة المنتظرة).

- اتفضل قول يا دكتور ... هي إيه الجملة ...؟!

- عطاء الله عطاء ... ومنع الله عطاء ...

- عطاء الله عطاء، ومنع الله عطاء ... جملة جميلة ... مريحة جدًا يا دكتورنا الغالي، أفهم من كدة إنك اعتبرت اللي حصل ده منع من الله، واعتبرته عطية... هو حضرتك صوفي ... بتميل للصوفية يعني ...؟

- مش شرط أكون صوفي أو سلفي أو سني أو شيعي أو مذهبي أو مسيحي أو منتمي لأي طريقة، أو أي دين من أديان الله علشان يكون عندي يقين كامل بأن إرادة ومشيئة الله هي النافذة ... وإن عطاء الله عطاء، ومنع الله عطاء...

- مش قصدي التشكيك يا دكتور ولا التهكم لا سمح الله ... بالعكس أنا حابب أفهم... يمكن أستريح...

- أنا متفهم يا عمر ... لكن واضح أن الجملة البسيطة العميقة القوية دي وجهت ذهنك لاتجاه معين ...

- الحقيقة إنت فكرتني بكلام سمعته قبل كدة، وكنت محتاج أناقشه مع حد بيفهم في الحاجات دي، وبعدين قلقت ... قولت هتدخل نفسك في حوار أنت أضعف منه، وممكن تعمل مشكلة عن جهل منك ...

- سمعت إيه قولي، ويمكن أقدر أناقشك بدون ما حد فينا يزعل ولا حاجة ...

- سوابق الهمم لن تخرق أسوار القدر.

- يااااااه ... دي الحكمة رقم ٣ من حكم ابن عطاء الله السكندري ... كنت عايز تناقش فيها إيه يا عمر...؟ إنت كمان طلعت بتقرأ لابن عطاء الله السكندرى؟؟...

- لا يا دكتور، مش عارف أنا سمعتها مرة من شيخ وهو في خطبة الجمعة، ومافهمتش، ولما روحت قلبتها في دماغي، وكنت محتاج أناقشها، وفعلًا رجعت للشيخ بس قلقت أتفهم غلط... قلت أبعد عن الحوارات دي أحسن...

- لو حبيت تقرأ عن (الحكم العطائية) لابن عطاء الله السكندري هتلاقي فيها أكتر من مائتين وخمسين حكمة أجمل من بعض... بس ده بحر عمييييق... علشان تفهمه لازم التبسيط، وأرشحلك كتاب الحكم العطائية شرح وتحليل للشيخ محمد سعيد البوطى... الناس دي وهبت نفسها للعلوم الدينية، وتبحرت وصعدت بأرواحها للسماء... وبما إننا في الإسكندرية... عارف ابن عطاء الله السكندري تتلمذ على يد مين؟؟ أبو العباس المرسى.... اللي إحنا بنروح نزور ضريحه في بحري (المرسي أبو العباس) الأئمة دي لن يعوضها التاريخ... رحمة الله عليهم جميعًا...

- بشكرك على المعلومة يا دكتور... الحقيقة هي جملة رااائعة، بس هل ده معناه إن أسوار القدر غير قابلة للاختراق أو محاولة العبور من فوقها ... تصدق يا دكتور بعد لما سمعتها لقيت نفسي بكتب جملة على ورقة بس قطعتها ... بقولك بقلق أنا من الحوار في الاتجاهات دي ...

- تاني مرة تقولي إنك بتقلق من الحوار في بحر العلم ده ...

- طبعًا بقلق؛ لأن اللي يغوص في البحر ده لازم يكون سباح ماهر، وإلا هيغرق في أول مواجهة مع أي تيار بيقدر يتحكم في حجم أمواج البحر ...

- كلام كبير جدًا ... لكن مش مستغربه منك ... إنت حكاية كبيرة ... قولي كتبت إيه بترد على جملة ابن عطاء الله السكندري ...

- كتبت (إذا كانت أسوار القدر غير قابلة للاعتلاء أو الاختراق ... إذًا ... فلنرتحْ على مقاعدنا الوثيرة، ولننتظر منح القدر وهداياه أو جحيمه)...

- دي جملتك اللي محل نقاش وجدال يا عمر ... كنت عايز تقول إيه؟...

- كنت عايز أقول مهما اجتهدنا وعملنا وتفانينا مش هنوصل لأكتر من اللي القدر عايزه ومقسوم لنا ... يبقي نستريح وبلاش عذاب في الدنيا، وكدة كدة هتوصلنا الهدايا أو هيتصب علينا الجحيم ... ويبقي بدل لما نستني المصايب والمشاكل نخلص على نفسنا بقى، ونستريح من هم دنيا مش عارفين أولها من آخرها ... نجتهد ونتعب ولا نقعد ونستريح ...؟! مجهودنا ليه نتيجة، ولا النتايج متسجلة قبل الامتحان ...؟! حضرتك فاهمني ... يعني نذاكر ولا نلعب ... بلاش نلعب حتى ... نذاكر ولا نهدي بقى، ونخلي الأيام تعدي، وإحنا واللي مكتوب علينا، ونستسلم لمجريات القدر ... كلام شبه اللي حضرتك كنت بتقوله من شوية في حكاية الكابتن طارق ابنك ... لما واحد يطلع عينه سنين طويلة بيجتهد، ويكون هو الأول في مجاله على طول، وساعة الحسم يلاقي حد أخد مكانه؛ وتعب السنين يروح في ثانية...

تفتكر اللي كان بيجتهد وبيعذب نفسه ده هيحس بإيه ... بالظلم طبعًا ... لكنه ما يقدرش ينطقها... لأن كل الناس بتقوله ده قدرك ... القدر شاء ... هتعترض؟؟؟!!... ما تقدرش ... لأنك مؤمن بالله وبالقضاء والقدر ... كلامي صح ولا أنا بخرف يا دكتور ...

- كلامك ممكن يكون فيه حاجات صح، لكن كان مكتوب على طارق إن حلمه ما يتحققش في المكان ده ومع الناس دي ... أما في موضوع الظلم ده ... مش القدر اللي ظلم ابني طارق يا عمر ... لأ ... بعض البشر اللي بتحكمهم المصالح ومافيش عندهم مبادئ ولا قيم ولا أخلاقيات هي اللي ظلمته ... المصالح الدنيوية هي العامل الرئيسي في موضوع طارق ...

- هو إنت هتناقض نفسك يا دكتور ... مش قلت إن ده قدر ومكتوب ... رجعت تقول إنه مصالح دنيوية ... أمال فين دور القدر هنا؟؟!...

- القدر المكتوب إنه مالوش نصيب في المكان ده، رغم إنه أخد بالأسباب واجتهد، وعلشان قدر الولد التاني مكتوب إنه ياخد المكان ده اتوفرتله الأسباب اللي هي المصالح الشخصية لعديمي المبادئ، و تدخلوا وهما فاكرين إنهم بيغيروا الأقدار.... أبدًا يا عمر... ماحدش يقدر يغير حاجة ربنا كتبها... ماحدش يقدر ينفع حد أو يضر حد إلا بإرادته سبحانه وتعالى... النقاش ده صعب جدًا، وبحر عميق برضه، وعلشان نقدر نبحر فيه لازم نكون جاهزين كويس، ومعانا أجوبة كتير لأسئلة أكتر وأكبر ... تصدق أنا دلوقتي محتاج حد يسحبني للشاطئ قبل ما أغرق هههههههه ...

- إذا كنت بثقافتك ودراستك ومعرفتك بتقولي هتغرق يبقي أنا كنت أعمل إيه يا دكتور ...؟! فيه حاجات مش بنقدر نواجهها؛ فبنهرب منها ... وحضرتك بتقولي الهروب ضعف ... بس المواجهة هنا انتحار ...

- غلبتني المرة دي يا عمر ... لازم نذاكر كويس في مسألة إحنا مسيرين ولا مخيرين علشان نخوض في حوارات زي دي؛ لأنها مش لعبة... وكل كلمة فيها محسوبة علينا... لو حتى مش هتتحسب علينا من البشر على الأرض بالتأكيد هتتحسب علينا عند رب الكون في السماء... وإحنا مش ناقصين نتحمل ذنوب زيادة ... إحنا طمعانين في رحمته، وإنه يحسن ختامنا ...

(وضع رأسه بين يديه، وظرفت عيناه دموعًا سالت على خديه، وسقطت أرضًا حينما رفع وجهه للسماء يستغفر الله على خوضه حوارًا هو غير مؤهل له).

- يالا يا دكتور نرجع كفاية علينا النهاردة كدة. يالا بينا علشان خاطري.

- يالا بيناااااااااااااا

***

(١٨)

أحلام أم حسن مازالت تراودها، ولِمَ لا ولديها أحلام البنت الكبيرة ذات الثمانية عشر ربيعًا ذات الوجه الأبيضَ المدور المنقوش بالنمش، وتتوسطه عينان كعيون الغزلان؟!

أحلام الابنة نائمة على الأرض بجوار السرير التي تعلوه أمها وأختاها، وحسن نائم تحت الرجلين كما يطلق على جسد الطفل النائم عكس النائمين في السرير.

أم حسن تنظر لابنتها الكبرى وكأنها ترى نفسها. فقد كانت في مثل جمالها بل أكثر.

الأحلام لديها لا تنتهى. منذ طفولتها وهي تحلم.

لذلك أطلقت على ابنتها الأولى اسم (أحلام)...

سنوات طويلة وهي تحلم بالثراء والبيت الواسع النظيف..

الحضن الدافئ والعطر الطيب الذي يفوح منه.

قضت عمرها كله غير راضية ومعترضة على ما وجدت نفسها فيه.

فهي ترى في إمكانياتها الجسدية وملامحها الجميلة الجريئة ما كان يجب أن يستثمر في حياة أخرى.

ليست غلطتها أن ولدت في بيئة ريفية، وأبوها مزارع فقير، وأمها تساعده في زراعة قيراطين من أراضي البحيرة الزراعية، استأجروهما من أحد ملاك الأراضي قاطني المدينة.

منذ نعومة أظافرها، وهذا خطأ في التعبير؛ فهي منذ صغرها لم تلمس نعومة لأظافرها أبدًا؛ فقد انغمست مع أمها في العمل بالغيطان؛ فتشقق كعبا قدميها، وصارت كفوف يديها خشنة، واتسخت أظافرها، ولم تنعم يومًا في سنها الصغيرة بأي نعومة لا جسدية ولا معنوية.

حتى الفراش كان خشنًا؛ فقد كانت أمها ترقدها فوق الفرن البلدي؛ حتى تشعر بالدفء في الشتاء، وفي الصيف كانت ترقد على سطح البيت المبني من الطوب النيء ذي الطابق الواحد والغرفة الواحدة ....

كانت ترقد وسط أقراص الجلة.لا يعلم هذا اللفظ إلا من عاش في الريف؛ فأقراص الجلة هي روث الماشية يتم عجنه بالتبن، ويدور كالقرص الذي يلعب به في مسابقات ألعاب القوى، ويوضع في الأسطح؛ كي ينشف ... كانوا يستخدمونه كوقود للأفران البلدي؛ مما يزيد سعير النيران التي تطهي عليها ألذ أنواع الفطائر والخبز والكعك ومشتقاتها ...

أو كسماد للأرض قبل ظهور الأسمدة الكيميائية.

أيام أن كانت منتجاتنا الزراعية طبيعية، وكانت الفواكه والخضروات رغم صغر حجم الثمار تتميز بالطعم الرائع الذي يتحدى في طعامته كل منتجات العالم.

لم يكن هناك مبيدات، ولا أسمدة عضوية، ولا كيماويات.

فقط كانت أقراص الجلة والتقاوي تؤخذ من المحصول؛ وبالتالي الدائرة مغلقة على جودة المنتج المزروع.

الآن التقاوي من الخارج مهجنة، وسماد ومبيدات كيماوية وغيره مما يرش على المزروعات؛ فينضج المحصول في زمن قياسي، ويكون حجم الثمار أضعاف ما كان؛ فتعطي الأرض محصولاً وفيرًا...

لكن لا لون ولا طعم ولا رائحة، وربما يكون بداخله ما يصيبنا بكل أمراض العصر الحديث، ونحن لا ندري، ولكن ليس بأيدينا أن نغير الواقع؛ فقد أصبحنا سجناء لدائرة تحطم كل ما هو جميل في حياتنا.

من فعل هذا بنا؟ من هم؟ لا أعلم، ولا أدرى ...

من سلبونا أراضينا الزراعية الخصبة، واستبدلوا بها غابات الخرسانة المسلحة.

جريمة تمت في حق الوطن، وتراكمت الجرائم، ولم يجد اللصوص والخونة من يردعهم؛ فتمادوا وساعدتهم أيادٍ نجسة مرتشية، كل همها أن تستحوذ على كل ما تسقط عليه أعينهم من مكاسب ومغانم، وليذهب الوطن إلى الجحيم.

هذا حال الريف الآن بعد أن كنت تقطع المسافات الطويلة وسط غيطان المزروعات الخضراء، ومهما كان البصر حادًا فكل ما يستطيع الوصول إليه هي ألوان خضراء ...

الآن تصطدم عينك بما تراه من غابات إسمنتية خرسانية اغتالت براءة الريف الهادئ الوديع؛ فحولته لصورة لقيطة كالمسخ من المدينة.

لا أراضي زراعية سوى مساحات صغيرة تتضاءل بمرور الزمن.

المحزن أننا نزرع الصحراء، ونحاول جاهدين استصلاح الأراضي الصعبة بعد أن ضيعنا بأيدينا وبمحض إرادتنا الأراضي الخصبة.

لك الله يا مصرنا الغالية....

عندما أصبحت أم حسن في الرابعة عشر من عمرها كانت قد ثارت أنوثتها، وتوهجت عيناها، وطلبتها الأيادي للزواج، وخافت عليها أمها من مصيرها، وكانت ذات مكر ودهاء.

اختارت لها أسرة سكندرية من الأثرياء...

الزوج في الخمسينيات والزوجة في الأربعينيات، ولم ينعم عليهما الله بالأبناء، وكانا يطلبان من تخدمهما، فأرسلتها بعد أن نقلت دهاءها ومكرها لعقل ابنتها الصغيرة وقلبها، وفطّنتها على الملعوب الخطير.

لقنتها خطتين لا ثالث لهما ولا بديل، وإلا عادت وتزوجت ودفنت جمالها وشبابها تحت طين الأرض في الغيطان. هكذا قالت لها الشيطانة الأم....

مع أنه... في الحقيقة.... طين الأرض في الغيطان ومن يزرع ويحصد من أهالينا الفلاحين أشرف وأطهر من أفكار هذه المرأة الملعونة....

لكنه حال كل مكان وزمان...هناك الصالح وهناك الطالح...

كما توجد المرأة العفيفة التقية النقية الشريفة...توجد أم الفتاة التي تخطط وتتحالف مع الشيطان... في الريف.... في المدينة... الملاك ملاك.... والشيطان شيطان.....

شتان بينهما....

قبل أن تشرح لها خططها أوصتها بأن تنزع عنها ماضيها في الريف، وتستحضر بداخلها روح الحضر والمدينة...

وأن تغتسل من كل ما عانته في حياتها الماضية، وتهتم بنظافتها الشخصية، وتحافظ على ما وهبها الله إياها من حُسن الطلة وبهاء المنظر وجمال الوجه وشقاوة الجسد.

أما الخطة الأولى...

فهي أن تتقرب من سيدتها لأقصى حد؛ لعلها تنفذ كالسهم في صميم أعماق قلبها الفارغ والمحروم من عاطفة الأمومة؛ فتستحوذ على عطفها ورضاها، وتكون جزءًا من حياتها؛ فتتخذها ابنة لها بالتبني، وتتحول حياتها، وتنقلب رأسًا على عقب، وتنافس فتيات المدينة على الفوز بقلوب شباب العائلات الراقية، وتتزوج من شاب ذي مركز مرموق، وتعيش حياة رغدة هانئة ..... على ألا تنسى أمها التي ولدتها، وترسل في استدعائها؛ لتكمل ما تبقي لها من سنوات حياتها بعيدة عن الشقاء.

أما إذا فشلت في الحصول على ما ستسعى إليه.

فعليها الانتقال إلى الخطة الثانية ...

البحث عن شاب من الأسرة، تستحوذ على تلابيب قلبه حينما يزورهم، وتشغله وتشاغله، وتفعل المستحيل؛ حتى تصبح كل ما يتمناه، وتصبح حلمه حتى تحقق حلمها.

وعندما تشبك السمكة في سن السنارة المُطعَّمة بالجمال والجسد الممشوق.

تسحبه لأعماق جوف قلبها، وتلسعه بسخونة الحب الملتهب؛ فيحترق بنيرانه، ولا يقوى على الصمود، فيطلبها وتعيش في تبات ونبات، وتخلف صبيان وبنات، وأيضًا تستدعي أمها لما تريد أن تكون عليه في أيامها المتبقية.

عقلها الصغير المفتقد لخبرة الحياة لم يستوعب كل أفكار الأم الجهنمية.

انتقلت الفتاة من الطوب اللبن لفيلا جميلة في الحي الراقي المسمى كفر عبده بالإسكندرية..

الفيلا لم تكن كبيرة؛ فلم يكن قاطنوها سوى السيد والسيدة صاحبي الدار.

فكانت غرفتها في الدور العلوي تجاورها غرفة صغيرة تمنت يومًا السيدة أن تسكنها فلذة كبدها، ولم يشأ الله أن يكون؛ فأصبحت خاوية.

في الدور الأرضي بجوار المطبخ كانت غرفة الفتاة الصبية أم حسن.

بدأت العمل، وتفانت في خدمة سيدتها؛ حتى أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنها ...

في البداية كانت تعود لأمها يومين كل شهر، وبعد ستة أشهر أصبحت ترفض المغادرة؛ وبالكاد تذهب لرؤيتها كل ثلاثة أشهر على مضض وامتعاض، وكلما زارتها ذكرتها بخططتها؛ فتتهرب منها؛ حيث كانت هانئة بمعيشتها لخدمة سيدتها وبالحياة المرفهة...

ولما مرت سنتان، وأصبحت في السادسة عشر من عمرها فاجأتها سيدتها بما كانت تخطط له أمها، وكأن الخطة الأولى تطلبت سنتين كاملتين حتى تؤتي ثمارها.

كانت جالسة تحت أقدام سيدتها يومًا وهما يشاهدان فيلمًا في التليفزيون، والجو شتاء، فوجدت يد سيدتها تلمس شعرها، وتنزل على كتفيها؛ فسرى

الدفء في أضلاعها؛ فانحنت برأسها لتضعها على فخذ سيدتها، وتحتضن ساقيها، فضمتها إليها، وسحبتها من مقعدها الأرضي، ووضعتها في حجرها، وأنامت رأسها على صدرها؛ فتقوقعت كالطفلة الصغيرة التي تطلب الرضاعة؛ فحنت السيدة أكثر وأكثر، وروتها بدموعها، وظلا هكذا حتى الصباح حينما عاد السيد من مأموريته، وفتح الباب متسحبًا؛ كيلا يوقظ أهل الدار - وجد هذا المنظر المهيب؛ فتركهما لحالهما وقد أيقن أن زوجته قررت أن تتخذها ابنة لها.

ولِمَ لا وهما وحيدان والبنت جميلة وتصلح أن تنتمي إليهما، وهي منذ سنتينَ لم يصدر منها ما يقلقهما ويعكر صفوهما ...؟!

ولما استيقظوا جميعًا كان الوضع مختلفًا؛ فقد طلبت منها أن تنتقل للدور العلوي، وتقيم في الغرفة المجاورة لهما؛ فقد أصبحت بنتهما ...

لم تصدق نفسها، ولكن فرحتها أنستها خطة أمها، ولم يعكر صفو جمال معيشتها إلا زيارة لأمها وخالها جاءا يطلبان عودتها للزواج من ابن الخالة في الريف ...

رفضت السيدة بشدة، وتمسكت بها كابنة لها.

ولما اجتمعت الأم بابنتها ذكرتها بالخطة، وطالبتها بتنفيذ تكملتها.

فأنكرت أم حسن على أمها ما كانا اتفقا عليه، وطالبتها بالمغادرة؛ فلم تكن لترضي وجود هذه المرأة الريفية بطينها وشحمها بجوارها، وذكرتها بأيام القهر والمعاناة، وكررت طلبها بالمغادرة.

هددتها الأم والخال بالتبرئ منها؛ فقد أنكرت أمَّها الخسيسةُ الملعونة، وفرحت بما فعلت سيدتها التي كانت قد رسمت مستقبل الأسرة بوجود ابنتها الجديدة.

ترددت أكثر لهما، وتدللت وأصبحت كل طلباتها مجابة.

ثارت عليها أنوثتها يومًا حينما سمعت تؤوهات سيدتها وهي تتلوى تحت جسد سيدها في علاقتهما الزوجية، واشتعلت نيرانها؛ فتحركت هي الأخرى، وظلت تتلوى؛ فتلذذت ثم ازدادت نيرانها اشتعالًا؛ فوضعت ذيل جلبابها في فمها؛ كيلا تنفضح بتأوهاتها وصرخاتها المكتومة، ولما ازداد تلبد السحب وانهمر المطر الداخلي تحطمت جسور الجبل، وانطلق السيل عارمًا يحفر طريقه؛ ليغرق أصابعها وكف يديها. هدأت النيران، وانذوت الصرخات المكتومة، وانقلبت على وجهها ومازال طرف جلبابها في فمها، وغطت في نوم عميق، وقد تعرت ساقاها حتى قبيل عجيزتها ....

ولما كانت قد فتحت باب غرفتها؛ لتسترق سمع أصوات نغعات وتأوهات سيدتها فقد ازداد باب الغرفة انفراجًا كأنه يطلب بداية قصة مثيرة...

ينتهي اللقاء الزوجي، وتنام السيدة، وينزل السيد للمطبخ طالبًا كوبًا من الماء، ويصعد فيري بصيصًا من النور يخرج من غرفة الفتاة والباب مفتوح، وعندما هم بإغلاقه شاهد المنظر المثير وهو الذي منذ دقائق كان في قمة إثارته.

الفتاة نائمة على وجهها وذيل الجلباب في فمها، ويدها بداخل ملابسها الداخلية وساقاها عاريتان ...

توتر جدًا، ورفرف قلبه، وتهدج وتلعثم، لكنه تمالك أعصابه، ورفع الغطاء؛ ليواري سوءتها ...

عاد إلى جوار زوجته وضمها إليه، ثم غاص برأسه وسط ثنايا صدرها محاولًا نسيان ما شاهده من منظر السيقان الشمعية البيضاء للفتاة البكر ...

استيقظت الفتاة مفزوعة لما رأت الغطاء يكسوها، واستعادت ما حدث؛ فاعتدلت ونامت على ظهرها، ورفعت يديها تنظفهما من أثر صمغ ليلة المتعة الشخصية...

وكل ما يشغلها من غطاها؟ هل سيدتها أم سيدها؟.

بدأ الفكر الشيطاني يتوغل داخل عقلها، وكانت قد ورثت المكر والدهاء من أمها ...

في الصباح نادتها سيدتها، ولم يبدُ عليها أي انزعاج، ولم تذكر لها أي شيء عن الليلة الماضية، ولما جن الليل وحضر سيدها من العمل لاحظت أنه لا يوجه لها أي كلام، بل لا يقوى على النظر إليها وكأنه خجلان منها؛ فأيقنت أنه من فعل في هذه الليلة ...

مرت أيام، وبدأت فكرة جريئة تخطر على بالها، وكانت كخطة ثالثة.

تناست أن أمها الداهية حذرتها عندما شرحت لها الخطتين بأنهما خطتان لا ثالث لهما. ولكنها نسيت هذه الجملة..

لِمَ لا تستحوذ على قلب هذا العجوز؟؟

وقد رأت من ملامحه خجل السنين...

فلم تكن زوجته على أي قدر من الجمال، وكان جسدها كالعصا اليابسة؛ فلم تكن لديها أي تضاريس أو مقومات للإثارة .....

بدأت تخطط للضربة القاضية.

فسوف تلهيه ببعض الحركات المثيرة؛ فتلفت نظره لها، وتبدأ في استثارته، وعندما يأتي ويقع في المحظور يتزوجها، وتطرد سيدتها من حلمها؛ وتصبح الدار لها وحدها، وليذهب العجوز بعد ذلك إلى الجحيم ...

فستصبح ثرية، وألف من يتمنى من الشباب الراقي أن يرتبط بها.

الأيام التالية شهدت نسيانها متعمدة ترك باب الغرفة مفتوحًا، مع تعرية ساقيها، وتغلق عينيها في انتظار دخوله عليها لتغطيتها.

وهو ازداد شغفه وطلبه للماء ليلًا؛ حتى أن زوجته طالبته أن يحضر زجاجة الماء بجواره، ولكنه رفض لرغبته في تدخين سيجارة كلما استيقظ؛ فيفضل أن ينزل ليدخنها، ولا داعي لإيقاظها ...

ظل الوضع قائمًا أسابيع، حتى تيقنت أنه اعتاد على رؤية ساقيها كل ليلة قبل أن يغطيها، ولكنه لم يلمسها أبدًا ...

فحركت المياه الراكدة، ولمست يديه بحركة حانية وهي تناوله كوب الشاي في المساء، ونظرت مباشرة لعينيه؛ فلمعت وكأنه مراهق صغير.

كاد يقبض على يديها، ولكنه استفاق لوجود زوجته قريبة منه؛ فاعتدل وكأن شيئًا لم يحدث...

وفي الليل نزل يشرب سيجارته، فأحست بحركته، وفتحت الباب، ونامت على ظهرها هذه المرة وكشفت عن ساقيها ...

صعد وشاهد المنظر وهم أن يغطيها ككل ليلة بعد أن أمعن النظر، ورويت عيناه من سيقانها الشمعية المخروطة، ولما لمحته قد اقترب ولمس الغطاء رفعت ساقيها وفرجت عنهما؛ فلمست بفخذها يديه، فكأنه تكهرب أو لسعته النيران؛ فخرج مسرعًا خشية أن تستيقظ، وينكشف أمره.

ولما خرج وأغلق الباب اعتدلت، وارتسمت على وجهها علامات النصر، وبدأت في ما تعودت أن تفعله يوميًا؛ لتطفئ نيران أنوثة شبابها ...

مرت الأيام وهي تشاغله، وتفتعل المواقف؛ حتى أحست بلهيب أنفاسه، وأنه قد حان وقت قطف الثمار.

جاء اليوم الحاسم، وطلبت منه أن يعلمها القراءة والكتابة، وكانت السيدة تعاملها كابنتها، ولا تشك فيها لحظة، ولا في زوجها بالطبع.

استأذنت الزوجة زوجها في التبضع خلال فترة حصة القراءة والكتابة؛ فرحب بالطبع للاختلاء بالفتاة ...

غادرت السيدة، وبقي السيد والفتاة ...

ازدادت نعومتها، وتلون كلماتها؛ حتى كادت تنهار حصونه، ولكنه ظل متماسكًا؛ مما أصابها بخيبة الأمل ...

ولكنها أشعلت نيران الأبالسة في عقلها الناري؛ فجن جنونها بفكرة شيطانية ...

استأذنته في الصعود للحصول على حمام بارد؛ نظرًا لحرارة الجو....

وبعد أن أنهت حمامها فتحت الباب، واستدعته؛ ليناولها فوطة نظيفة؛ فقد سقطت الفوطة على الأرض، فاستجاب...

ما إن طرق عليها الباب ليناولها الفوطة حتى فتحت الباب كاملًا، وارتمت في أحضانه في حركة مفاجئة كاد ينخلع من هولها قلبه.

نكزها برفق؛ فرجعت للخلف، والتهمها بعينيه، وشاهد ما لم يشاهده في حياته، فقد كان ملتزمًا صابرًا على ما آل إليه قدره ونصيبه، واتضح له أنه لم يشاهد جسد امرأة مطلقًا.

أطلقت عبارات الحب والجنون الكاذبة، فكادت تخيل عليه...

ولما همت به وهم بها، وقالت: هيت لك قال: معاذ الله.

تراجع للخلف، حتى كاد يسقط لما رأى برهان ربه ...

رأى حياته تنهار وشخصيته ووظيفته وزوجته. مرت حياته كأنها شريط سريع في ثوان معدودات.

إذا هم بها سيفقد كل شيء. سيفقد الحياة مقابل جسد مثير لفتاة صغيرة.

من سيتقبله بعدها؟؟

الأهم من هذا كله. أين الله؟؟

فقد عاش لرضاء ربه، وقد وهبه الله البركة في الرزق والجاه والسلطان.

نعم لم يهبه الأولاد ولكن كيف يعصاه؟؟

هل يختم حياته بهذه السقطة وهو المصلي الملتزم الجاد في كل تصرفاته؟؟

كل الأسئلة دارت في ذهنه في ثوانٍ معدودة. دفعها مرة أخرى عندما اقتربت. دموع التماسيح تملأ عينيها وهي تستعطفه وتصف له حبها ...

غطاها بروب حمام، وانصرف عنها، وتركها تضرب أخماسًا في أسداس. وتُمنِّي نفسها بأنه سيعود، وستمتلكه بل ستمتلك كل شيء ... كل شيء...

أغلق على نفسه غرفته وتوضأ، وصلى ركعتين شكرًا لله على إنقاذه من براثن الشيطانة الصغيرة.

ولما أنهى صلاته أحس أنه تطهر من رجسها، وألهمه الله الخطة التي كانت تحيكها عليه، وكيف كادت تهوي به إلى القاع ...

عادت زوجته فوجدته في غرفته ووجهه ممتقع، واقتربت منه وهم أن يتكلم، فوضعت يدها على فمه، واحتضنته بدفء وأحس بالأمان؛ فسقطت دموعه، فبلت صدرها المكشوف والتهمته، وشعر وكأنه يغزو أخصب الأراضي، ويحرث في الحدائق الغناء ورحيق الزهور يعبق جو المكان.

انتهى أجمل لقاء وأطوله، فلم يحدث من خمسة وعشرين عامًا هي عمر زواجهما أن كان اللقاء ممتعًا كهذه المرة.

صعدت على صدره العاري برأسها، وأشعلت له سيجارته، فالتقطها في فمه، وأطلق زفيرًا طويلًا بعد شهيق قصير، فالتفت حولهما سحابات من الدخان ...

طالبته بأن يحكي لها، ولا يخجل، فهي تعرفه...

هي أقرب إليه من البشر جميعًا... هي متأكدة من حبه لها وجديته وشجاعته...

حكى لها ما دار من أسابيع، فلم تهتز...

قامت واغتسلت، ثم عادت وطبعت قبلة على جبينه وهي متأكدة من صدق روايته ...

طردت الفتاة ... شر طردة ...

لم ترأف بها، ولم تسمع دفاعها عن نفسها؛ فقد اعتبرتها شيطانًا رجيمًا، يجب التخلص من شرورها ...

غادرت الفتاة الفيلا، ولا تملك إلا ملابسها ومئات الجنيهات كانت قد ادخرتها من أجرتها قبل موضوع التبني ...

وجدت نفسها في الشارع...

تذكرت كلمات أمها بأن الخطتين لا ثالث لهما، ولكنها وضعت الثالثة من وحي شيطانها، وطمعت في المزيد؛ ففقدت كل شيء...

من يطمع في المزيد ويرد الاستحواذ على كل شيء ... يفقد كل شيء ... المثل يقول: الطمع يقل ما جمع ...

والمثل يقول أيضًا: عصفور في اليد أفضل من مائة على الشجرة ...

فقدت العصفور، وفقدت الشجرة، وفقدت العش... فقدت كل شيء.

الآن لا تستطيع أن تعود لأمها، فلابد أن السيدة سبقت وأخبرتهم بفعلتها؛ وستكون سيرتها على كل لسان في القرية.

ماذا تفعل؟؟ أين تذهب؟؟

ظلت هائمة على وجهها في الشوارع؛ حتى أعياها التعب؛ فاستقرت على أريكة حجرية بداخل الحديقة الدائرية أمام محطة مصر (محطة القطار الرئيسية بالإسكندرية).

ساعات لم تدرِ كم عددها قابعة في مكانها لا تتحرك، والشمس قد قاربت على المغيب...

رغم إحساس الجوع الذي كان يقلص معدتها فإنها أحست بالاحتياج الشديد للبكاء...

تمنت لو كانت في البلد وأمامها أمها.

لارتمت في أحضانها معترفة بفشلها وانكسارها.

لكنها أبدًا لم تنعم بمثل هذا الحضن الدافئ. فقد كانت أحضان أمها شوكية الملمس. جافة الإحساس.

سقطت دمعاتها تشق طريقها على الخدود الوردية، حتى وصلت لثنايا الشفاه؛ فتذوقت طعمها المالح، ولم تجد في يدها منديلًا لتجففها، فرفعت كم جلبابها، وغطت عينيها في محاولة لإيقاف نزيف الدموع.

لما رفعت يدها عن عينيها اصطدم شعاع بصرها بأم فتحية المتسولة المتكومة خلف السور الحديدي أمامها.

أم فتحية كانت تراقبها منذ ساعات وهي لا تدري...

بين رمشة عين واستفاقتها وجدتها تجلس إلى جوارها على الأريكة الحجرية، وتضع يدها اليمنى على كتفها، ثم تحتضنها فتعصرها.

دفنت رأسها دون أن تدري في أكوام اللحم المتدلي من صدر أم فتحية والمسمى سابقًا (ثديًا). شحوم تراكمت عشرات السنين منذ جلستها هنا في الميدان بعد أن أصبحت مهنتها التي احترفتها، ولا تعلم مهنة غيرها.

البلطجي أبو سريع حامي حما المتسولين ومدير أعمالهم أعطاها هذا المكان المميز مقابل نسبة ٧٥٪من حصيلة يومها، يأخذها مقابل المكان والحماية والسكن ووجبة ساخنة وسط ساعات العمل الطويلة.

٢٥٪ الباقية تدخرها في مكان لا يعلمه إلا الله. تدخره لحين أن يغدر بها أبو سريع كما غدر بمن قبلها.

أفرجت عنها بعد أن أحست بتهدج أنفاسها؛ فقد ضغط الشحم واللحم على رئتيها؛ فانقطعت نسمات الهواء وتعرقت وجنتاها.

- مالك يا بنتي؟ بقالك كام ساعة قاعدة لوحدك وبتعيطى. هو أنتي تايهة؟

- لا يا ست أم .....

– أم فتحية. بنتي كانت زمانها قدك كدة، بس الله أعلم بقي أراضيها فييين. الله يسامحه اللي كان السبب من قسوته وجبروته طفشت. المهم قوليلي. إنتي تايهة.

– تاااني يا أم فتحية. لأ يا ستى. أنا طفشت زيك كدة تمااااام.

– ليييييه يا بنتي؟! ده أنا ندمانة على اللي عملته زمااان. كان زماني مستورة في بيتي مع عيالى. أينعم الراجل كان وحش أوي وأخلاقه زفت. بس يا بنتي ضل راجل ولا ضل حيطة. أهو حالي بعد ما طفشت. فضلت أدور في الشوارع لغاية ما قابلت أبو سريع.

– أبو سريع مييين؟؟

– وطي صوتك يخرب بيتك. أبو سريع. فيه حد هنا ما يعرفش أبو سريع. ده اللي بيشغلنا هنا.

– بيشغلكم؟؟ هو مش إنتي برضه ست غلبانة وعلي باب الله.؟!

– كلنا غلاااابة يا بنتي وعلي باب الله. هو إنتي فاهمة إني قاعدة هنا بسترزق لحالى. لا يا حبيبتي ماكنش اتعذر. ده ماصص دمنا ... القعدة دي شغل بنلم الغلة، ونتجمع آخر الوردية يلهف المعلوم، ونروح نتخمد في السكن لغاية الصبح، ونرجع كل واحد مكانه، وأهي عيشة والسلاااام. أنا اللي أخترت أطفش، وربنا عاقبني وأنا راضية بالمقسوم.

– ودي عيشة دي يا أم فتحية. ما تيجي يا ختي أرجعك لولادك.

– هههههههه. بعد ما شاب ودوه الكُتاب، يا بنتي ده كان زماااان. لا أنا أعرف هما فين ولا ينفع أرجع. هي مش الست كانت بتقول: عايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان. هههههههه

– يقطعك يا أم فتحية هو إنتي فيكي حيل تضحكى.

أم فتحية تحسس على جسد الفتاة الفتية وتعتصره.

– لأ يا بت، الحق إنتي اللي عافية. هههه. ما تيجي تشتغلي معانا واهو ترزقى. هو إنتي مش بتقولي طفشتي من أهلك.

– أيوة. بس أنا ماليش في الشحاته.

– أمال ليكي في أيه يااااابت هههههههه.

– مالك كده فشتك عايمة على طول يا ولية.

– يااااابت عايزاكي تفرفشى. انسي الدنيا بلا عياط بلا هبل. تعالى. تعالى. ده أبو سريع هيفرح بيكي أوى.

– لا يا ستي، بلا أبو سريع بلا يحزنون.

– أهو هنااااك أهو. جاي علينا. استني بس.

همت الفتاة بالهروب، ولكن سرعان ما وصل البلطجي، وقطع عليها طريق المغادرة.

– ميين الأمورة يا أم فتحية؟. بنتك ولا اااااايه؟

– لا يا معلم. دي بت غلبانة رماها اللي رمانا. وأنت أدرى بقى.

أبو سريع في منتصف الأربعينيات، كائن ضخم الجثة ذو تقاطيع وجه متضخمة كضخامة جسده. صوته أجش. يرتدي ثيابًا عصرية مهندمة. ينظر للفتاة وكأنه يعاين شيئًا قرر شراءه.

– وماااااله ما تاخديها معاكي السكن، وهناك نتكلم.

– نتكلم في إيه أنت وهى. ما حدش ليه دعوة بيا، وسيبوني أمشي أحسن أصوت وألم عليكم الناس.

– مالك مالك. براااااحتك. أنا كنت هوفرلك شغل وسكن وأكل وشرب. براااااحتك يا غزاااال.

– يا عم أنا ماليش في الشحاتة.

– مين قال شحاته بس يا غزاااال. الشغل كتيررر. تحبي تشتغلي اااايه؟

ترددت الفتاة وتلعثمت، وتذكرت مصيرها الغامض، وأين ستجد المأوى بعد قرار الهروب.

الهروب من أهلها، والهروب من نفسها، والهروب من شيطانها، والهروب من ضعفها.

الهروب في حد ذاته ضعف ...

ها هي تواجه المجهول ... ولِمَ لا تجرب أبو سريع، وإذا لم يعجبها الحال تواصل الهروب.

– مااااشي يا معلم، أنا ممكن أنضف في البيوت.

– مااااشي يا غزاااال بس باخد ٧٥٪ من أي مبلغ يوصلك، وهوفرلك السكن واللقمة النضيفة.

– لا ياااعم يفتح الله. خد النص وأنا النص.

– هههههه ده انتي مفتحة أوى. مااااشي الكلام ياغزاااال. خديها يا أم فتحية على السكن علشان ترتاح، والصباح رباح وأشوفها هناك. سلاااااااام.

احتضنتها أم فتحية، وكأنها وجدت ضالتها الضالة.

تدحرجت مستندة على ابنتها الجديدة، حتى وصلت لبيت قديم ذي طابقين، وكأنه تم بناؤه قبل الزمن، قريب من محطة مصر.

دخلت معها غرفة في الطابق الأرضي، وجدت أجسادًا من السيدات ملقاة على الأرض لا تتحرك من عمق النعاس، وأصوات شخير يرتفع من إحداهن.

وكزتها أم فتحية، وشرحت لها أنهن متسولات، وأنه وقت النوم.

تمددت إلى جوارها، واحتضنت شنطة ملابسها وناااااااااامت.

في الصباح بدأت رحلتها مع عالم تنظيف البيوت بالأجر اليومى. تحت حماية أبو سريع ووصايته.

الذي أعجب بالطبع بها منذ أن رآها، وحاول مرارًا وتكرارًا أن يفترس أنوثتها، ولكنها نجحت في الإفلات منه في كل مرة.

فاجأها يومًا بطلبها في الحلال ...

وافقت مرغمة؛ فلم يكن لديها بديل سوى الاستسلام لهذه المعيشة المذلة داخل جدران هذا البيت الخرب مع هؤلاء النسوة المتشردات، وكذلك التنازل عن نصف شقاها لذلك البلطجى.

انتقلت لعدة مساكن معه، وأنجبت البنات والولد، ويومًا انهار الجبل أمام إحدى زوجاته بعد أن اكتشفت زواجه وإنجابه من أم حسن.

هربها وأولادها قبل الفتك بهم، وأجر لهم هذا السكن في إحدى القرى الصغيرة على حدود محافظتي الإسكندرية والبحيرة.

تركهم وغادر ...

هرب هو الآخر من مسئولياته.

رغم قوة جسده وضخامته، لكن هرب. والهروب ضعف ...

استكملت رحلة العمل في المنازل، وانتظمت عند الدكتور مصطفى، وهاهي تعمل لدى الأستاذ عمر السباعي.

الحياة تسير، وعقارب الزمن لا تتوقف.

الشمس تشرق... الشمس تغرب ... الليل يعقبه النهار... الظلام يضيئه الصباح...

أوراق النتائج تتساقط كأوراق الشجر وقت الخريف.

العمر يمضي، ولا نستطيع إيقافه...

منذ لحظات كنا أطفالاً نلهو في الغيطان، ولا نحمل همًا.

الهم يحاصرنا كلما امتد بنا العمر.

التزامات وأعباء. أفواه جائعة وبطون خاوية. أجساد عارية وسماء غائمة.

الله أكبر... الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله.

أفاقت على صوت المؤذن في بوق المسجد الكبير في القرية..

مازالت تنظر لوجه أحلام الجميل، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مكسوة بتجاعيد حزينة.

وقبل أن تستسلم لنوم الدقائق المتبقية قبل شروق الشمس. أحست بضعفها الحزين.

كان يجب أن تواجه حياتها بقوة ... أكبر خطأ ارتكبته في حق نفسها كان الهروب.

فالهروب ضعف ... والمواجهة قوة.

***

(١٩)

أضغاث أحلام... أم أحلام اليقظة. أم أنه مستيقظ، ويعتقد أنه نائم. أم نائم بالفعل، ويحلم أنه مستيقظ. أم أنه جسد ملقى على الفراش وروحه هائمة في السماء.

السباعي ممدد على فراشه لا يتحرك وكأنه جثة هامدة، ولكن انقباض بطنه وانبساطها يوحي بأنه مازال على قيد الحياة. تتحرك عيناه من تحت جفونه المنسدلة، وتتغير تعابير وجهه ما بين شبه ابتسامة تعقبها ملامح غضب ...

ثم انتفاضة مفاجئة، وكأنه سيقع من فوق جبل...

ثم يعود للسكووووون...

النوم حالة ضرورية لا بد منها لراحة الجسد. لكن تبقى الأحلام والرؤى سرًا من أسرار الخالق.

تُرى هل هو النموذج المصغر للموت؟!!

هل تغادر الروح الجسد ساعات النوم وترحل لأزمنة وأماكن فكّر فيها العقل سابقًا.

وربما لم يفكر فيها، ولا خطرت على باله أبدًا.

بالتأكيد هناك من يجد في النوم الهروب من أزماته ومشاكله.

السباعي يجد في النوم نوعًا من الهروب الآمن....

غالبًا ما يعود مسرعًا؛ ليمارس طقوسه العادية الضرورية؛ ليبقى حيًا.

ثم يلوذ بالفراش، فيحتضن وسادته، ويتقوقع ويجبر نفسه على النوم..

ربما لا يستطيع، ولكنه يحاول ويحاول، ويبدأ عقله في التفكير، ويحاول إيقافه...

تعاود ذاكرته بث الأحداث السلبية المؤثرة في حياته.. ويحاول تجنبها.. فلا يستطيع.

لذلك هو لا يدري أنائم هو أم أنه مستيقظ.....

حتى أن أحلامه تراوده وهو مفتوح العينين.....

غريب ذلك الإحساس بعدم الأمان والاطمئنان.

فمهما بقيت نائمًا أو مستيقظًا. لن يفرق؛ فالأمران سيان.

في التوقيت الأسبوعي نفسه عادت. أطلقت صافرات إنذار وصولها من خلال ضغطة طويلة على زر الجرس الخارجي.

اخترقت أذنه، وأعادت روحه الهائمة إلى أرض الواقع ...

ظن أنه جزء من الحلم، ولكن إصرارها جعله يفتح عينًا واحدة، ويبقي على الأخرى مغمضة؛ لعله يعود إلى فراشه، فتساعد العين النائمة أختها، وتأخذها معها لملكوت الله الغامض.

تحسس فراشه، واستند على كل الأثاث من حوله، حتى وصل مجهدًا للباب وفتحه.

كالعادة استدار عائدًا إلى فراشه ...لكنه ترنح وكاد يسقط، فالتقطته بين أحضانها بحركة عفوية ...

استند على وسائدها، وكاد يستقر على صدرها، ولكنه استفاق، فاعتدل وتوجه مباشرة للفراش دون أن ينطق بحرف.

ابتسمت وعادت إلى المطبخ؛ فغيرت ثيابها، وارتدت ما اعتادت أن ترتديه كل مرة.

لم يستطع النوم مرة أخرى. فقد تحسس جسدًا حيًا. ينبض. إنها أنثى.

تبللت وسادته من دمعات سالت بلا أي سبب...

دفن رأسه بين الوسادتين وضغط عليهما ... لا يريد أن يتذكر...

فالأصل كان الهروب من الأحداث ... الهروب من كل أنثى ... الهروب من كل شيء.

لكنه تذكر كلمات الدكتور مصطفى (الهروب ضعف ... المواجهة قوة).

فليجعلها بداية للمواجهات. ربما يستطيع استعادة حياته، وإلا فلابد من تنفيذ ما جاء من أجله.

تحسس خطاه في هدوء ودخل الحمام الملاصق لغرفته، واستسلم تحت هدير ماء الدش البارد.

دقائق طالت وهو مازال مستسلمًا برأسه يواجه سيل خيوط الماء بوجهه، ولا يريد أن يخرج.

اقتربت من باب الحمام، وظلت منتظرة خروجه، وطال الانتظار.

- أستاذ عمر. أستاذ عمر. أنت كويس؟

لم يُجِبْ فقد كان غارقًا في ذكرياته ... قلب ينبض وجسد مبلل وروح لا تعرف طريقًا لخلاصها. وعقل لا يتوقف عن التفكير. وذاكرة تعيد مشاهد لا يريد رؤيتها، ولكنها مفروضة عليه. أما أذناه فقد اكتفتا بالتركيز على صوت الماء المنهمر.

- يا أستاااذ. أنت بخير يا أخوياااا؟

بدأت بطرق الباب بعنف خشية أن يكون أصابه مكروه.

- أيوة. أيوة. يا أم حسن، أنا بخير ماتقلقيش. دقايق وهطلعلك.

- طيب. الحمدلله. افتكرتك وقعت جوة ولا حاجة.

- لا ماتقلقيش. أتفضلي كملي شغلك، وأنا هخرج كمان شوية.

عاد لما كان عليه، ولم يحسب مدة بقائه، ولكنه أخيرًا قرر الخروج، وقد ارتدى روب الحمام.

خرج، وكانت على مرمى بصره، ولما رأت ملابسه بصقت في صدرها في حركة معتادة في التراث لمن ترى ما يخيفها أو يخضها، وكانت ملابسه هي ما أثارت حفيظتها.

- مالك التخضيتي كدة لييييه. شفتي بعبع.

– لا يا أستاذ، بس لامؤاخذة يعني البشكير اللي أنت لابسه ده.

– هههههههههه. يعني الجلابية اللي إنتي لابساها دي هي اللي مغطياكي أوي هههه.

– يانهاااااار! والله أنا بس باخد راحتي علشان بتكون نايم.

وفي حركة سريعة سحبت مفرش السفرة والّتفت به، فكان منظرها مثيرًا للضحك؛ فضحك وقهقه وكأنه لم يضحك منذ زمن طويل.

لم يُعِرْها انتباهًا وتركها ملفوفة بمفرش السفرة، ودخل المطبخ يعد فنجانًا من القهوة.

دخلت عليه بعد أن سترت نفسها، وطالبته بالعودة لغرفته، وستعد هي القهوة نيابةً عنه وفعلت.

كان قد ارتدى ملابسه، ودخل إلى الشرفة حيث مقعده المعتاد. ولكن هذه المرة لديه صحبة.

طلب منها الجلوس، فلم تتأخر؛ فقد كانت تريد الفرصة، وهاهي الفرصة قد حانت.

– هو ممكن أسألك، يعني كدة مالك يا أستاذ عمر. من ساعة ما عرفتك يا إما مكشر، يا إما نايم، يا إما عند الدكتور مصطفى. هو حضرتك لامؤاخذة كدة يعني من اللي بيتعالجوا عنده؟

– هههههه. قصدك مجنون يعنى. هههههه

- لا لاسمح الله، والله ما أقصد. أقصد يعني النفسية فيها حاجة كدة ولا كدة.

- هو يفرق معاكي كتير يا أم حسن.

- طبعًا يابيه. هو مش أنا دلوقتي باكل عيش، وبأكل ولادي من خيرك.

- طيب قوليلي عندك ولاد أد إيه.

بدأت في سرد قصتها من أولها وكأنها تفضفض، مع أن السؤال كان عن عدد الأولاد وربما عن أسمائهم، لكنها وجدتها فرصة تشغل باله بقصتها، ربما يحن قلبه لما تسمعه أذناه.

لم يتحرك وهو يستمع، ولولا أنه كل حين وحين يلتقط فنجان القهوة، ويرتشف منه قدر ما يلمس شفتاه لكانت اعتقدت أنه جثة مفتوحة العينين تجلس أمامها.

بعد أن أنهت قصتها طلبت منه بتوسل أن يأتي لزيارتها في بيتها؛ ليرى بنفسه البؤس والشقاء اللذين تعيش فيهما مع أولادها فوعدها ...

استأذنته وعادت تكمل ما بدأته، وظل كما هو حتى غادرت ولم يشعر بها كالعادة.

***

(٢٠)

مديحة بدأت تتململ من طلبات ناني المبالغ فيها.

المادية والخدمية. فقد كانت تطلب منها بلا حياء ولا حساب.

مديحة كانت تجيب في بادئ الأمر من واقع الصداقة التي قاربت بينهما، وكذلك اعتقادًا منها أن المال والخدمات وسيلتها لامتلاك فرشاة ناني السحرية.

ضاقت ذرعًا بها وبطلباتها؛ بدأت ترفض وبإصرار ...

فاجأتها ناني ببضع مقاطع فيديو وبعض الصور التي كانت قد أرسلتها على هاتفها المحمول. من تليفون غريب في بادئ الأمر، ثم رسائل صريحة بعد تجاهل مديحة للرسائل المجهولة.

صعقت مديحة بما وصلها، واستشاطت غضبًا، ولكنها تمالكت أعصابها، وردت عليها بعلامات الموافقة وبوجوه ضاحكة، وكأن ما تراه لا يخصها شخصيًا.

انتظرت ناني طويلًا قبل أن ترسل مديحة في طلب المقابلة، ولكنها طلبت مقابلتها خارج الأستديو.

– حمدلله على السلامة ياحبيبتى. وحشتيني يا دودو.

– وانتي كمان يا حبيبتي أكتر.

– إنما إيه بقي سر المقابلة هنا. هو أنا ماوحشتكيش ولا الفرشاة هههههههههه.

– يابنتي وطي صوتك، الله يخرب بيتك. احنا في مكان محترم.

– لييييه هو أنا بقول كلام عيب ولا اااايه. هو أنا مش نونة حبيبتك. ياخسااااارة شكلك هتنسى. بس على ميين هههههه. هتنسي هفكرك.

- أيوة. هتفكريني. زي الفيديوهات والصور اللي بعتيهم.

- لا ياحبيبتي دول حاجة بسيطة. التقيل موجود في الحفظ والصون.

- في الحفظ والصون؟ انتي فاهمة اللي بتعمليه ده؟ انتي عارفة انتي بتلعبي مع مين؟

- مع دودو حبيبة قلبي طبعًا. دي حاجات صورتها علشان أفضل فاكراكي. أصلك بتوحشيني يا دودو.

- ناني أنا مش بهزر. أنتي فاهمة كويس إيه اللي بتعمليه؟

- طبعًا يا مديحة يا روحي. فاهمة كويس، ويارب انتي كمان تفهمي.

- ده من أمتي بتصورينى. ومين اللي بيصور. احنا بنكون لوحدنا.

- مش مشكلتك كل ده. خلينا في الصور والفيديوهات، وخلينا نتكلم بزنس بقى.

- بزنس؟؟؟

- أيووووون. بزنس. اااايه مش عارفة يعني اااايه. أفهمك أناااا. تشتريهم بكام؟؟

- أشتريهم؟ أنتي شكلك أتجننتى.

- لا خاااالص، أنا أعقل منك. كل حاجة وليها ثمن. أنا ليا ثمن وأنتي ليكي ثمن. شوفي بقي ثمنك يبقي كاااام. أنا كنت بعتلك على مليون ... كويس ولا؟

– أنا ممكن أمسحك بأستيكة من الدنيا كلها. ماتلعبيش مع النمر أنا مش قطة ... النمر مش هيخربشك. ده هيقطعك وياكلك بأسنانه.

– هههههههه. خوفتيني يا دودو. ياماماااااااا.

– أنتي مش فاهمة.

– لاااااااا فاااااهمة كل حاجة. بصى. ضغطة زر وكل ده يكون على الهواء. على اليوتيوب والفيس وكل مواقع التواصل الاجتماعى. ومش هتعرفي تلمي نفسك.

– انتي أتجننتي يابت أنتى.

– بالعكس أنا عقلت وكبرت واستويت.

– عايزة كام خلصينى؟؟

– أيوة كدة تعجبينى. مش بقولك بزنس. أنا عارفة إنك عملية وهنعرف نتفاهم.

– أتنيلي بقي وقولى....

– ماقلنا مليون حلو.....

– كتيررررر..كتيررررر..هجيبلك منين المبلغ ده...

– من جوزك.. أبوكى... اللي تشوفيه بقى... مافيش فصال..

– نانى.. أنا عمري ما أخرت عليكي حاجة. بتعملي معايا كدة ليه.

– قدامك أسبوع، وبعد كدة ماتلوميش إلا نفسك ياقطة. أقصد يا نمرة هههههه.

***

(٢١)

رفع فنجان القهوة، ولم يجد به ولا حتى قطرة. فقد انتهى منه منذ ساعات، ومازال جالسًا مكانه لم يتحرك.

متأملًا في السماء وسقوطها في مياه البحر على امتداد بصره.

كيف تسقط السماء في البحر. هل لأن الأرض كروية. فتظهر استدارة السماء على امتداد البصر. وإن كانت الأرض كروية، وتدور حول نفسها، وتدور حول الشمس فلماذا لا تنسكب مياه المحيطات والبحار والأنهار؟؟؟.

يبدو أنه قد نسي دروس العلوم، وأن هناك جاذبية أرضية، تبقي كل الكائنات منجذبة للأرض.

وإن كان.

دار برأسه سؤال آخر. لماذا يرى مياه البحر على امتداد البصر بثلاثة ألوان، تبدأ بالأخضر ثم الأزرق فالأزرق القاتم؟؟؟

فيعود برأسه؛ ليستند على مسند مقعده، وينظر للسماء، فتجيبه عيناه إنه انعكاس الضوء على سطح الماء مع عمق البحر يعطي اللون الظاهر.

الطيور على مرمى البصر أليست كائنات حية؟؟ تصطاد من سطح الماء أو من أسفله السمكات الصغيرة.

ولكن كيف تشرب ماء البحر المالح؟؟ هل فعلًا تشربه أم أنها تعيش على طعام بلا ماء؟؟ سر لا يعلمه إلا الله. سر خالق الكون. له في خلقه شئون.

شوق يجذبه ليعود للحياة والضوء وكائنات مخيفة تتشبث به، وتحاول خطف روحه للظلام.

لِمَ لا يحاول أن يستعيد حياته حتى ولو بفعل خير؟

ربما يخرج من براثن هواجسه وكوابيسه المظلمة.

كانت تساعده على فعل الخير. فقد كانت هي الخير كله.

منذ أن عرفها وحياته تتقدم ونجاحاته تزدهر.

نظر بعيدًا حتى وصل بصره منتهاه. فشاهدها تأتي من بعيد من فوق سطح الماء.

تختفي خلف الأمواج العالية، وتظهر كلما ابتلع البحر موجاته.

عاد بعد أن أنهى مهمته في تأديب مدرسها الذي اختفى من مدرستها، وربما غادر منطقته بالكامل؛ خوفًا منه بعدما لقنه درسًا في الأخلاق والقيم.

لقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه).

أليست هذه من تعاليمنا ومبادئنا. لا يصح أن نتقدم لخطبة إحداهن إذا ما علمنا أنها بالفعل مخطوبة.

أمضى وسط جبال سيناء الشاهقة شهورًا وصورتها لا تفارق خياله؛ فهي أمله الوحيد في الدنيا. محور حياته.

أجمل اللحظات وهو يجلس ليلًا تحت ضوء النجوم، ويشرب الشاي المغلي على الراكية.

أم كلثوم سيدة الغناء العربي تشدو (أغدًا ألقاك) على الإذاعة التي تحمل اسمها.

من الخامسة للسادسة مساء، ومن التاسعة للعاشرة مساء. تشدو كل ليلة.

تنصت لها الآذان الحالمة، وتتهاوى تحت صدى صوتها القلوب الولهانة.

غدًا سيعود للقاهرة؛ ليراها وتستكين روحه.

كانت بانتظاره عند الشجرة الثالثة قبل مقياس النيل في المنيل. مكان اللقاء المعتاد.

هناك حفر قلبًا بخنجره، ووضع حروفهما الأولى خلف السهم البارز منه.

لما التقت العيون رجف القلب وازداد الولع والاشتياق، وانطلقت ذبذبات العشق تحيط بخصرها، وتشدها إليه؛ فتميل برأسها على صدره وتشعر بالأمان.

لم يكن في هذا الوقت ما أو من يسمح بلقاءات العشاق والأحبة.

فكانا يختلسان الدقائق القليلة المتوترة؛ لتتلاقى العيون، ويهيما بخيالهما فيما تشتهيه نفوسهما. لكن.

اللمس ممنوع، والزعل مرفوع. هذه هي القواعد.

اتفقا على ألا يفترقا أبدًا حتى الموت. أخذا العهود. انحنت لهما أغصان شجرتهما احترامًا وتقديرًا لهذا العشق البريء.

لم يكن يملك إلا قوته ووظيفته. فقد ضاع كل شيء مع فقدان أسرته.

الرضا هو العامل المشترك بينهما. الرضا هو سبيلهما لتكملة المشوار.

وعدته أن تكون له بلا مطالب وبلا قيود.

أقنعت والدها بذلك. رضخ لضغط ابنته الحبيبة وتزوجا.

ليلة العمر كانت راااائعة. فقد حجز المكان حول حمام السباحة لأحد الأندية، وأرسل الدعوات لعدد ١٠٠ فرد هو كل ما استطاع دفع تكاليفه.

تم إلغاء التصوير بالفيديو؛ لأن المبلغ المخصص لليلة العمر قد نفد عن آخره.

ليلة الزفاف لم يذق طعم النوم. فلم يكن يملك سوى أجرة أستديو التصوير لصور الزفاف قبل انطلاق الفرح.

صديقه جهز سيارته الفيات ١٢٧، وزينها بالزهور، وأعطاه المفاتيح، فسيكون هو السائق وعروسته إلى جواره، والأصدقاء حولهم بسياراتهم.

اتفق مع والد حبيبته على عقد القران عصرًا في المسجد المواجه لمنزلها.

حضر في الموعد المحدد وتم المراد. وعاد مساء؛ ليصطحبها لأستديو التصوير، ومنه إلى كوشة الزفاف على حمام السباحة وسط فرحة كبيرة من أهلها والأصدقاء.

ازداد عدد الحاضرين عن المحجوز، ووصل لأكثر من ٣٠٠ شخص؛ فاستأذن الأصدقاء من كل أسرة تجلس في حديقة النادي وضموا الكراسى. وتبقت مشكلة أن الطعام مجهز لعدد مائة فقط.

خرج أحد الأصدقاء، وعاد بما لذ وطاب من المأكولات؛ ليأكل الجميع ويتسامروا، ويتمايلوا على نغمات الموسيقى والأغاني الرائعة.

غنى لها بصوته الأجش الصارم أغنية الفنان العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ (أنا لك على طول... خليك ليا) ...

غنت له بصوتها الناعم البريء الهادئ أغنية الفنانة المطربة أصالة (مابحبش حد إلا أنت).

كانت ليلة من ألف ليلة وليلة.

استفاق على تنميلة قدمه اليمنى؛ فقد كان يضغط عليها في وضع مائل وهو سرحان يتذكر أيامه الجميلة.

لِمَ لا يبدأ بخطة إشغال ربما تداوي جراحه وتعيده للحياة؟!

أم حسن أول من جال بخاطره. فقد ذكرت له قسوة حياتها ومشاكل بناتها وابنها.

لِمَ لا يذهب لزيارتهم، ويعاين حياتهم على الطبيعة؛ ومن ثم يقرر ما سيفعله معهم؟!

كان قد طلب منها سابقًا أن تترك له صورة بطاقتها، ومنها أصبح لديه العنوان.

قبل أن يتخذ القرار أراد أن يشرك صديقه الكبير د. مصطفى في الموضوع، لكنه لم يفعل.

***

أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان هي نعمة الصحة.

إذا كانت السعادة في الرضا وراحة البال فلابد أن تكون مشمولة بصحة جيدة.

بلا صحة لا سعادة.....

المرض شقاء. المرض ابتلاء. المرض شبح يزور الجسد بلا موعد مسبق وبلا ترتيب.

ضيف غير مرغوب فيه. يقتحم الجدران، ولا يدخل من الأبواب.

الجسد السليم يصبح عليلًا في لحظات. وتبدأ رحلة التداوي والعلاج. أيامًا. شهورًا. سنوات.

حتى يأذن الله بالشفاء. أو الاختفاء .....

القوة ليست مقياسًا على الصحة. القوة لا تمنع الشبح من التسلل واحتلال الجسد.

القوة الجسدية تنهار أمام كائن مرضي ضئيل لا يُرى بالعين المجردة.

القوة النفسية أهم من القوة الجسدية. قوة العزيمة. قوة الإرادة. تساعد الجسد في المقاومة.

القوة الإيمانية الأهم. الإيمان بالله وقضائه وقدره.

سينعم على الجسد بمقاومة سحرية استسلامية لقدر الله وقضائه.

استسلام أم مقاومة؟

استسلام لقدر الله؛ مما يعطي القوة النفسية لمقاومة الزائر البغيض.

الحمد والشكر لله في السراء والضراء، تمنح الروح امتنانًا وراحة لكل العطايا التي تأتي من الله.

حتى الابتلاء بالمرض؛ فهو عطية....

ربما تكون نقطة نظام تعيد الإنسان إلى طريق كاد يضله.

المقولة تقول: (إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك).

وأقول: (إذا غرتك قدرتك وتمكنك وقوتك وضللت الطريق فتذكر أن الله قادر أن يعيدك؛ لأنه يحبك)...

الله سبحانه وتعالى يحبني، وأنا لا أوفيه حقه؟ ...

نعم الله يحبك، ولولا حبه لك ما ابتلاك، ولتركك تزداد ابتعادًا.

تذكر حب الأم لابنها، ومن الممكن أن تعاقبه لتعيده للصواب.

أليست الأم تحب وليدها؟!أليس الابن هو قلب الأم .....

لعلك تفعل شيئًا ما تعلمه أولا تعلمه مما يحبه الله فيك ويقربك منه وأنت لا تدري.

ابحث عنه حتى لو كان مثل الإبرة وسط كومة قش ... فقط ابحث ...

عندما تجده تمسك به، وكرره كثيرًا، وتفنن في زيادته؛ لعله يكون طوق النجاة ...

فلتجعله عملًا صالحًا بينك وبين خالقك تجتهد فيه؛ ربما يكون فيه الخلاص وقت طلب الغوث.

الصدقة تطفئ غضب الرب.

***

(٢٢)

- أهلا يا عمر، أخبارك إيه؟ مالك يا ابني طلبت تقابلني دلوقتى. طمني عليك؟

- حبيبي يا دكتور والله. كتر خيرك إنك تعبت نفسك ونزلت.

- أنت بقيت غالي عندي يا عمر. أنت تقريبًا دلوقتي صديقي الوحيد.

- والله يا دكتور كنت عايز أخد رأيك في حاجة كدة تخص أم حسن.

- أم حسن؟. خير.

- كنت بفكر أزورها، وأشوف ظروفهم، وأتولى أمرهم.

- فكرة مش بطالة. بس لازم تخلي بالك. أدرس الحالة مظبوط، وحاول تتأكد أن الصدقة بتاعتك هتروح في محلها.

- أنا هعمل اللي عليا، وكله عند الله.

- بص يا عمر. ساعات إحنا بنساعد ناس، لكن بنساعدهم غلط.

- إزاى؟

- فيه ناس كتير لما بتلاقي الإعانات والفلوس بتوصلهم وهما قاعدين بيبطلوا شغل، وبيقعدوا يصرفوا اللي بيجيلهم، وبتبقي سبوبة بالنسبة لهم ...

لكن لو أخدنا الصحابة رضوان الله عليهم مثل وقدوة. هتلاقي الصحابي الجليل لما وصل المدينة بعد الهجرة، وحاول الأنصاري أنه يعطيه نص ماله. قاله لا. دلني على السوق. يعني ممكن أخد اللي أشتري بيه فأس أروح أشتغل بيها. وفيه مثل مش عارف مصدر بلده بيقولك: لا تعطني سمكة، لكن علمني الصيد...

- يعني بتقصد إن مش لازم الصدقة والإعانة تكون مستهلكات أو أكل أو فلوس، ممكن تتصرف وتساعدهم على البطالة.

- بالظبط كدة. ممكن ندور على المرضى ونساعدهم في العلاج، ونقف جنبهم لغاية لما يقدروا يشتغلوا ويعتمدوا على نفسهم.

وممكن نساعد كبار السن اللي فعلًا مش هيقدروا يشتغلوا ويصرفوا على نفسهم.

لكن الفئات العمرية اللي تقدر تشتغل يبقي أنت تساعدهم على بداية مشروع. تدورلهم على شغل.

لكن لو عملت غير كدة يبقي بتساعدهم على الكسل واستسهال الشحاته. واليد العليا أفضل من اليد السفلى. ولا إيه!!

– بس أنا مالى. أنا بدفع وكل نيتي خير، وربنا بقي هو اللي بيحاسب.

– عندك حق يا عمر. أنا بس بنورلك طريق أنا دخلت فيه قبلك، واكتشفت بعد شوية أني ماشي غلط، وفيه ناس كتير أخدت مني بدون حق، وفيه ناس أحق منهم بالإعانات دى. لكن أنا احتسبت كله عند الله. وقررت أن الصدقة تكون للمرضى وكبار السن والغير قادر على العمل وبس.

– ربنا يخليك على نصايحك. أنت أكيد مريت بتجربة قاسية.

– فعلًا. لما كانت زوجتي مريضة. كنا محتاجين حد يقعد معاها. حاولت أجيب من الإسكندرية ماعرفتش.

قلت طيب البلد الفلانية إحنا بقالنا سنين طويلة بنبعت الزكاة والصدقات إلى أسرهم، واللي قائم على الموضوع حد ذو ثقة.

طلبت منه يشوف من عندهم حد يرضي يشتغل عندنا ...

واحدة ست ترافق زوجتي في مرضها، وتساعد في البيت.

تخيل ماحدش رضي يشتغل !!!...

وعرفت بعدها أن كل أسرة اتعرض عليهم الموضوع قالوا: ونشتغل ليه ما الإعانات بتوصلنا لغاية عندنا!!

غير اللي قالت أنا ما أشتغلش عند حد وفي البيوت !!!... تخيل !!!...

لكن تقدر تستقبل إعانات على أساس أنها غلبانة.

قررت ساعتها أوقف الإعانات والصدقات، وكرهت الناس كلها.

لغاية لما ربنا ابتلاني بمغص في بطني مفاجئ، وبلا أي أسباب، واتنقلت المستشفى،واتعذبت أيام طويلة.

كانت نقطة نظام عندي ومراجعة قوية، وبغض النظر التشخيص كان إيه.

بس الحقيقة أن التشخيص كان وجود مشكلة بقالها سنين، والدكاترة كانوا مستغربين إزاي أنا ماحسيتش بالآلام طوال المدة دى.

تخيل أنا لما فكرت لقيت إني تعبت لما بدأت أقطع المعونة عن الناس، مع أني قطعتها علشان هما كمان قصروا معايا جدًا.

جه زارني شيخ من أصدقائي حكيت له الحكايه. قالي موضوع مهم جدًا.

فاكر حادثة الإفك اللي اتهموا فيه السيدة عائشة بالزور.

الراجل اللي أطلق الإشاعة ده كان سيدنا أبوبكر الصديق بيغدق عليه في العطايا، وطبعًا بعد الإشاعة المغرضة الخبيثة اللي أطلقها ...

سيدنا أبو بكر قطع عنه المعونة كاملة....

تخيل نزل فيها قرآن كريم بيعلمنا أن ما نعطيه إنما هو لوجه الله.

مش هشغلك أكتر من كدة في الموضوع ده. أعمل الخير بس تحري الدقة قبل ما رجلك تغرس يا صديقي الشاب.

- كتر خيرك يا صديقي الكبير..

اتخذ قراره بالتوجه لمنزل أم حسن؛ لعله يساعد في إعادة هيكلة حياتهم.

***

(٢٣)

اكتشفت مديحة أن صديقتها ناني لم تكن سوى نصابة ترتدي ثوب الصداقة والملائكية... وأن المرسم وفرشاته ما هما إلا وسيلة لاصطياد ضحياها، وأن جلسات السمر بالنادي ما هي إلا جزءًا من مخطط الشيطانة وزوجها لابتزاز الضحايا.

مديحة بطبيعتها جريئة، وترحب دائمًا بالمواجهات، ولا تخشى العواقب؛ فعائلتها وثراؤها يحميانها من الكثير من المواقف التي عرضت نفسها لها.

قررت أن تواجه زوجها بما حدث ورفض ابتزاز نانى.

غالبًا ما يكون قرار المواجهة المبكرة صائبًا....

التأخير يؤدي للمزيد من الخسائر والانزلاق في وحل المشكلات الزلق.

اتخاذ قرار سريع بنسبة نجاح ٨٠٪ أفضل من تأخير القرار لضمان النجاح ١٠٠٪؛ لربما التأخير يؤدي لانهيار نسب النجاح لصفر٪.

المثال الواضح في صندوق التفاح المخزن ... لو وجدنا تفاحة بدأت تفسد يجب الاستغناء عنها فورًا، واتخاذ قرار سريع باستبعادها رغم الخسائر المالية المترتبة على ذلك.

أما لو تأخر القرار فستنتقل عدوى الفساد للصندوق كله.

إذًا الحل في اتخاذ القرار السريع ...

(المواجهة قوة ... الهروب ضعف) ...

تملك الزوجَ غضبٌ عارمٌ لما علم بالموضوع، وصمم على الانتقام، رغم ضعف شخصيته فإنه أحس بالنيران تغلي في عروقه.

لم تذرف مديحة دمعة واحدة؛ فقد كانت قوية، وهذا ما ساعدها على اتخاذ قرار المواجهة وعدم الهروب والاستمرار في الخطأ.

توقفا عند مركزهما المرموق، وكيف سيديران هذه الأزمة، وكان لابد من الحصول على كامل التسجيلات والفيديوهات والرسومات الخاصة بمديحة...

إذًا لابد من خطة لمواجهة خطة الشياطين.

***

(٢٤)

الثامنة مساء ... عمر السباعي يحمل شنطتين كبيرتين، بهما ما لذ وطاب من خيرات الله، ويدخل الزقاق الذي تسكن به أم حسن، ويسأل عنها، فيدله المارة، وتراقبه عيون النساء والأطفال الجالسين أرضًا أمام بيوتهم الآيلة للسقوط، وإن كانت أجزاء منها منهارة بالفعل.

وصل لباب خشبي عتيق، ولم يجد صعوبة في فتحه، فقد استند عليه بإحدى الشنطتين؛ فتحرك محدثًا صوت أزيز صدأ السنين على مفاصله الحديدية.

انزلقت قدمه على السلمة المكسورة، ولكنه تمالك نفسه، ونجح في عدم السقوط..

لمست قدماه مياهًا تملأ مدخل البيت المهترئ، ووجد عددًا من الحجارة المرصوصة حتى باب خشبي على الجانب الأيمن في نهاية المدخل الشبيه بالسرداب، وكأنها ترسم ممرًا آمنًا فوق المياه مجهولة المصدر.

تحرك عليها وهو يحاول الحفاظ على توازنه.

طرق الباب طرقات خفيفة.

فتحت له أم حسن وقد وضعت طرحتها على وجهها، ولما اكتشفت أنه هو أصيبت بالذهول، وتجمدت في مكانها، ثم استفاقت ورحبت وهللت، وفتحت الباب عن آخره حتى اصطدم بمؤخرة السرير الوحيد بالغرفة ...

ترك الشنطتين في المكان الوحيد الفارغ بالغرفة الضيقة، وجلس على حافة السرير، وكانت البنت الوسطى نائمة.

لمح كل شيء، وشعر بالحزن الشديد لحال هذه الأسرة البائسة.

تخلصت أم حسن من طرحتها الكبيرة؛ فظهرت بجسدها المكتنز الصلب خلف جلبابها البالى.

غض بصره عن مفاتنها. رغم سنها فمازالت تحتفظ بسر الأنوثة ...

لم يفتح فمه، ولم ينطق، بل ظل متأملًا في جدران الغرفة المشققة.

التفت عندما لمح شيئًا ما يتحرك على مخدة الفتاة النائمة.

مجموعة من الصراصير الصغيرة، وكأنها تتسابق فيما بينها، وقد عبرت فوق وجه الفتاة التي لم يتحرك لها جفن، ولم تتحرك الأم؛ وكأن ما يحدث شيء عادي ليس بغريب على سكان هذا القبر المسمى بالغرفة.

- إنتي لازم تشوفيلك مكان تاني تأجريه.

- يابيه الحمدلله على كدة. أجيب منين. أبو العيال هج وهجرني، وماحدش يعرف عنه حاجة. والبنات أهم بيساعدوني، وحسن ربنا يهديه عايز يتعلم، وكل لما أسيبه عند الميكانيكي يمكن يتعلمله صنعة بيهرب منه وبيروح المدرسة.

- إيه اللي بتقوليه ده. حسن لازم يتعلم. والعيشة دي لازم تتغير. أنا هساعدك.

- هتساعدني في إيه ولا إيه يا عمر بيه. ربنا يخليك. إحنا كدة كويسين.

– طيب اقبلي مني المبلغ ده، وانا هعدي عليكم كل شهر، وهرتب معاكي موضوع السكن ده.

– لا يا بيه كله إلا السكن إحنا هنا كويسين. مساعدتك مقبولة. لكن مقدرش أسيب الحتة دى. دي أمان ليا ولبناتى.

– طيب. هنتظرك تنضفيلي الشقة. سلام.

ودعته بفاصل من الدعوات والتحيات التي أثلجت قلبه الحزين مما شاهد.

خرج من الأزقة لخارج القرية؛ حتى عاد الهواء لصدره المختنق..

جلس على حافة سيارته ينظر للنجوم الكثيفة التي تظهر في الريف والأماكن المفتوحة وكأنها أقرب للأرض.

كيف يعيش هؤلاء الناس؟!

لا يملكون شيئًا، ولا ينعمون بأي من وسائل الراحة والترفيه، بل إنهم لا يملكون أي شيء.

لكنهم ماضون في الحياة يقاتلون الظروف والفقر.

كيف ترتسم على وجه هذه السيدة ابتسامة؟!

السر في الرضاااااااااااااااااااا

الرضا هو ما جعل الفتاة النائمة لا تشعر بتحرك الحشرات على وجهها. فهي تنام بعمق ...

تنام بعمق تحسد عليه. حتى هؤلاء لم يسلموا من الحسد.

لو لم تكن راضية ولديها راحة بال ما كانت جفونها استسلمت للنوم.

نعيش في رغد من العيش، وننعم بالملذات ووسائل الترفيه والوسائد الناعمة النظيفة، ولكن جفوننا تأبى النوم. وإذا نامت كانت قلقة ...

عيون مرهقة ذابلة، وعقول تعمل ليلًا ونهارًا، لا تتوقف تروسها عن الدوران ...

نتمنى لو يتوقف التفكير لحظات؛ لتهدأ أرواحنا، وترتاح أجسادنا، ولكن كيف لنا ذلك وعجلة الحياة تهرس عظامنا، ومتطلباتنا تزداد وتزداد، والحمل ثقيل رغم أننا الجناة.

نحن من يثقل كاهلنا بالأعباء؛ نظرًا لطموحاتنا اللانهائية.

سباق الحياة ...

مقارنة ظالمة بينكما ...

لن تستطيع يومًا أن تنعم بما تنعم به الفتاة ...

ولن تستطيع الفتاة أن تشقى بما تشقى أنت به يا عمر...

راحة البال... الرضا ...

هل تستطيع الوصول لهذه المعادلة (راحة البال = الرضا) (الرضا = راحة البال).

جسده كان قد تمدد على مقدمة السيارة، واستيقظ فجأة على سائل غريب سقط عليه من السماء، ولما لمسه بيده وقربه من عينيه ليراه اكتشف أنه

فضلات أحد الطيور العابرة، وقد لاح في الأفق احمرار السماء إيذانًا بشروق يوم جديد....

تثاءب وابتسم ساخرًا من غفوته التي طالت، ومن فضلات الطيور التي سقطت من السماء؛ لتوقظه، وتذكر والدته عندما كان يحدث موقف مشابه أمامها كانت تربت على كتفه، وتقول له: (هتتكسي يا عمر)، من أين جاءوا بهذه الخرافات ...؟!

الطيور لا تقصدنا، ولا ترانا أساسًا..... فقط هي تقضي حاجتها وهي في وضع الطيران، ولتسقط مكان ما تسقط ..... أقسم إنها خرافات.

ركب سيارته وغادر.....

***

(٢٥)

رجال المباحث يعملون ليلًا ونهارًا لحل اللغز.

حريق... قتل ... تشويه جثث ... لا إدلة ...

الأطفال نجوا من الجريمة البشعة؛ فقد كانوا في المدرسة وقت وقوع المذبحة...

الكاميرات المنتشرة بكامل الدور تم تدميرها، وبالطبع الحريق التهم كل آلات التسجيل وسيديهاتها، ولم يتبقَّ سوى الرماد...

حتى محروس البواب مذهول منذ وقوع الجريمة، وكل ما ذكره أنه كان نائمًا؛ لأنه يسهر طوال الليل لحماية المبنى.

زوجته وأولاده في البلد من قبل الحادث بأسبوع..

هجرته بعد مشاجرة كبيرة تدخل فيها أولاد الحلال، وخلصوها من بين يديه...

تم استدعاؤه للمرة الثالثة من قبل ضباط المباحث.

- ايه يا محروس مش ناوي تقولنا إيه حكايه المرسم ده ...

- ياباشا أنا قلت كل حاجة... الست ناني كانت بترسم وتبيع الرسومات...وقلتلكم كان فيه ناس بتيجي وتنزل شايلة لوح مرسومة.

- أنا سيبتك قبل كدة علشان كنت مصدوم. لكن دلوقتى.. لازم تقولنا الحقيقة كاملة.

- أنا قلت كل اللي أعرفه ياباشاا...

- اتخانقت مع مراتك لييييه؟

- مابتسمعش الكلام ياباشاا ورغاية، وبتعملي مشاكل مع السكان..

- تعرف الخاتم ده بتاع مين؟

امتقع لون وجه محروس وتغير لونه من الاحمرار إلى الاصفرار، واضطرب وهو يتحسس أصبعه الخالي من الخاتم الذي فقد منه .....

- انطق..

- شكل خاتم كان عندي يابيه بس ضاع من زماااان.

- ضاع من زماااان.... الله يرحمك يا محروس.... البس الخاتم.

تأكد الضابط من أن الخاتم الغامض الذي حرزته المباحث الجنائية يخص محروس البواب بعد أن لاحظ أثناء مراجعته لكاميرات مداخل العمارة وجود خاتم كبير في الأصبع البنصر لليد اليسرى لمحروس البواب.....

اعترف محروس بعد قليل من المواجهة بارتكاب الجريمة الشنعاء.

لم يهتز بعد الاعتراف، بل ازداد قوة وصلابة، ورفع رأسه وكأنه انتصر....

أدلى باعتراف كامل لجهات التحقيق .....

أثناء تردد زوجته على ناني لتنظيف الشقة والمرسم.. لاحظت ناني جسدها الممشوق، وراودتها أن ترسمها عارية بعد أن عرضت عليها مبلغًا ماليًا وبعض اللوحات المشابهة لشخصيات كانت زوجة البواب تشاهدهن عند ناني، ولم تكن تعلم بما يفعلن.....

رفضت وبشدة، وهددتها بإبلاغ زوجها الصعيدي.....

رضخت الحرباء المتلونة، واعتذرت لها، وأعطتها مالًا وفيرًا؛ كي تكتم السر..

لكنها أضمرت شرًا في نفسها تجاه زوجة البواب التي لم تحفظ السر، وبدأت تلوك بلسانها سيرة ناني ومرسمها المشبوه ....

حذرها زوجها مرات عديدة، ومنعها من الصعود للطابق الثالث نهائيًا...

قبل الحادث بأسبوع عاد محروس من عمل خارجي ليجد زوجته منكوشة الشعر.. على وجهها آثار لطمات ... ممزقة الثياب... تحتضن أطفالها، وتبكي في هيستريا...

نظر إليها، ولم يكن الأمر يحتاج لفطنة....

طلبت منها ناني شراء بعض الاحتياجات، واستسمحتها في الصعود لتوصيلها...

خالفت تعليمات زوجها وصعدت.... سحبوها للمرسم، ولما قاومت... ضربوها ومزقوا ثيابها.... رسمتها بعد أن قيدتها.... اغتصبها عاطف تحت تصوير عدسات نانى...

كان العقاب شديدًا لرفضها الانسياق لرغبات ناني، وكان الانتقام مريعًا لانتشار خبر المرسم..

هاج محروس وماج، وضرب زوجته وأهانها، ومزق المتبقي من ملابسها، وسمعهما كل من بالمنطقة، فأخذتها زوجة البواب جارهم هي والأطفال، وأعطتها ملابس أخرى ونقودًا، وأوصلتها لموقف الميكروباص؛ لتعود للبلد...

لم ينم محروس ليلته، وأقسم على الانتقام .....

لم تلتفت ناني ولا زوجها للمشاجرة التي حدثت أسفل العقار؛ فقد كانوا يتوقعون المواجهة، ولكنهم راقبوا من بعيد، واطمئنوا أن الشجار لم تذكر فيه أسماؤهم...

اطمئنوا أكثر لِمَا وجدوه من هدوء في معاملة محروس لهم....

تورددت لمحروس؛ لعلها تحصل على معلومة، لكن لم يذكر سوى أن زوجته مكانها الغيط والبهائم... كثيرة الكلام لا تصون أسرار الناس... وكان لابد من عقابها وطردها.

استراحت ناني لحديث محروس.....

ظلت النيران تأكل قلبه لمدة أسبوع قبل أن يتخذ القرار.....

يوم الحادث...

اقتحم أربعة من الرجال ضخام الجثة مدخل العقار، ولما حاول إيقافهم والاستفسار عما يريدون.. زغده أحدهم في صدره، ونظر إليه وكأنه تنين ينفث النار من أنفه..عاد محروس لكنبته في مدخل العقار، وكأنه لا يرى شيئًا...

سمع هرجًا ومرجًا وصراخًا مكتومًا من الدور الثالث...

صعد وتلصص...سمع اسم مدام مديحة صديقة ناني، وأنهم يريدون كل التسجيلات الخاصة بها، وإلا فسيقتلونها ويحرقون جثتيهما.....

رضخا وكان واضحًا عليهما الإعياء، وكأنهما كانا في معركة؛ فقد كانت ملابسهما ملوثة بالدماء...

ضغط الرجال عليهما وسط صفعات الأيدي المؤلمة، سلماهم كل شيء، ولم يكتفوا فقد كسروا المكان كله، وانهالوا ضربًا على ناني وزوجها؛ فأكملوا معالم المعركة.....

تركوهما وسط برك من الدماء، ولكنهما كانا على قيد الحياة.....

دخل محروس ليشاهد المشهد المرعب، وتستغيث به ناني لإنقاذهما، وعاطف ينتفض وكأنه يسلم الروح لبارئها.....

لحظات .... تمكن منه إحساس الانتقام من الشياطين.....

دخل المطبخ وجد وسط السكاكين التي كان يبحث عنها ساطورًا، وكان هو مبتغاه...

عاد ليبدأ بناني التي تشبثت بيديه؛ فتركت أظافرها علامات غائرة على جلده...سقط خاتمه وهي تستسلم لضرباته الهيستيرية.....

قطعها إربًا... مزق جسدها، ونزع كهفها بيديه، وكاد يلوكه بأسنانه، لولا أنه رأى عاطف وكأن الروح ردت فيه محاولًا الهروب...

ألقى بنفسه عليه، وقطع رقبته بضربة واحدة، ثم أكمل مهمته.....

كان البلطجية الذين أرسلتهم مديحة قد كسروا كل شيء وبالأخص الكاميرات، وأخذوا الشرائط والسيديهات وكاميرات التصوير....

نظر لجثتيهما المقطعتين، وخلط أجزاءهما بعد أن عاد؛ ليضرب بساطوره في هيستريا ثانية وكأنه لم يكتفِ.....

انهارت قواه، وسقط على الأرض دقائق، ثم استجمع ما تبقى له من قوة، ودخل حمامهم واغتسل، ثم عاد وارتدى ملابس نظيفة مما وجده ملقى من آثار عدوان البلطجية على غرفة نوم عاطف ودولابه ...

أشعل سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا بعد أن أحس براحة نفسية غريبة بعد انتقامه لشرفه...

فكر كيف سيخفي آثار جريمته... تذكر ما يحدث في الأفلام، ونزل لحجرته، وأحضر جركن بنزين، وسكبه على ما تبقى من جثتيهما وعلى محتويات الشقة والمرسم، حتى وصل لباب الشقة..

ألقى سيجارته المشتعلة، ولما تأكد من اشتعال النيران ...

بدأ في الصراخ وكأنه شاهد النيران فصعد....

لم ينتبه أحد لمحروس، وكل هم ساكني العقار كان الهروب قبل أن تطولهم النيران...

بعد اعترافه الكامل ...تم استدعاء مديحة التي اعترفت بكل ما ذكره محروس، ما عدا أنها أمرت باغتيالهما..

تم القبض على البلطجية الأربعة ... أقسموا أنهم حينما دخلوا كانت ناني وزوجها مصابين بضربات، ورأساهما ينزفان، لكنهما كانا متحاملين على أنفسهما، وقاوما بشدة...

لكنهم أنكروا أن يكونوا قتلوهما ... هم فقط ضربوهما وهددوهما؛ للوصول لسيديهات مديحة، وهو المطلوب منهم والمتفق عليه...

تم ضم كل ما جاء على لسان مديحة للقضية.

غير أنها قد أحرقت كل الأدلة المادية من لوحات وسيديهات وشرائط قبل القبض عليها.

لذا لم تتعرف جهات التحقيق على باقي الضحايا والمشتركين في جروب المرسم المشبوه.

كذلك بقي وجود شاكوش ملطخ بالدماء ولم تطوله النيران لغزًا محيرًا لرجال المباحث مع اعتراف البلطجية أنهم عند وصولهم كانت ناني وعاطف مصابين...

هل نشبت مشاجرة بينهما انتهت بهذه الإصابات؟؟...

سيظل هذا سرًا صعب حله؛ نظرًا لتكسير الكاميرات والحريق الذي التهم كل شيء!!!...

***

(٢٦)

الدكتور مصطفى يشعر بالوحدة؛ فلم يتصل به عمر السباعي منذ أيام.

قرر أن يزوره ليطمئن عليه.

كان عمر جالسًا كالعادة في شرفة منزله.

رن جرس الباب، فظن أنها أم حسن رغم أنه ليس يومها؛ فعقله الباطن متعلق بهذه الأسرة.

- مفاجأة يا عمر. مش كدة؟ أنا قلت أطمن عليك ...

- دي أجمل مفاجأة يا دكتور. اتفضل شرفني في خلوتي المفضلة هههه.

- ياااه المنظر من هنا راااائع. ليك حق ماتنزلش كتير.

– الحقيقة الإسكندرية كلها رااائعة. بحرها وجوها وناسها. أنا عاشق للإسكندرية.

– اختفيت ليه يا عمر؟

– أبدًا كنت عايز أشغل دماغي بموضوع. وبصراحة زرت أم حسن، ولقيت المكان صعب، والحياة هناك مستحيلة. كنت بفكر أشغل نفسي بالموضوع ده. كنت عايز أغير من حياة الناس دى. كنت عايز أوفرلهم حياة كريمة.

– طيب خلي بالك.

– يا دكتور ما خلاااص حرمت، وأتعلمت الدرس منك، لازم أعمل بحث كويس قبل ما أبدأ في موضوع زي ده...

لأن ناس كتير فعلًا بيعتبروه نوع من الشطارة والفهلوة، وهما نصابين للأسف ... وللأسف بيكون فيه ناس غلابة ومحتاجين فعلًا، لكن عندهم كرامة وعزة نفس ولا يمكن يشحتوا أو يدوروا على حد يعطيهم إعانة...

هما دول الناس اللي المفروض نساعدهم ... لكن أم حسن طلعت فشنك... هههههه..

– فشنك...فشنك إزاي؟ ... احكيلي ايه اللي حصل ...

– بعد ماخرجت من عندهم فردت جسمي على العربية، وقعدت أتأمل في النجوم ... راحت عليا نومة ...صحيت كان الفجر أذن والصبح

بيشقشق .... بعد لما أخدت العربية ومشيت... الفار لعب في عبى.. فاهم معناها يا دكتور ههه يعني قلقت..

مش عارف إيه اللي خلاني أرجع تاني، وأركن العربية، وأتمشى ناحية بيتهم، وبالصدفة لقيت راجل ضخم بيفتح الباب وبيدخل ...

اتسللت بالراحة لغاية لما أتأكدت أنه دخل عندهم ... مش عارف ده مين، لكن القلق أتغلب عليا، وبالذات إن موضوعهم بدأ يشغلني ...

مشيت وبدأت أعمل تحريات خارجية، وطبعًا أستخدمت مهارات شغلي السابق ... تخيل أكتشفت أن زوجها موجود، وبيجي يزورهم ياخد الغلة اللي هي بتجيبها هي وولادها!!! أكتشفت أنها أشترت أرض قريبة منهم، وبتبني عليها بيت !!! تاخد الأقوى ...

- خيررررررررررررر.

- عملت نفسي معرفتش حاجة، ورجعت زورتها بعد يومين ... كانت مبسوطة جدًا ... صدمتني يا دكتور ...

- لييييه اييه حصل ...؟

- كانت لوحدها ... لقيتها بتقولي ايه رأيك فيا ... قلتلها انتي شاطرة ومجتهدة وشغلك ممتاز ...

قالتلي لأ رأيك فيا أنا ...شكلي ... جسمي ...

طبعًا أنا أتخضيت قولتلها أنا مافكرتش فيكي بالطريقة دي أبدًا...

قالتلي أنت لوحدك وأنا عايزة أسعدك ... قلتلها بس أنتي متجوزة، وواجهتها باللي عرفته ...

انهارت وبكت ... قالتلي هو اللي بيجبرني أنصب على الناس، وأخليهم يساعدونا، وكل لما أجمع فلوس بيجي وياخدهم ...

واجهتها بالأرض والبيت جالها ذهول ...

قالتلي عرفت الكلام ده منين؟ ماحدش يعرفوا غيري أنا والراجل اللي اشتريت منه، وهو اللي بيبني البيت، ده جوزي لو عرف هيدبحني ...

أنا كنت استريحت منه، أنا عارفة إيه اللي رماه عليا تاااااني ...

المهم أنها لما لقيتني مش هاجي على هواها وهستسلم لأفكارها ولصدرها اللي بدأ يبلل جلبيتها مش عارف ليه.. يمكن من خجلها من اللي عرضته عليا... فاجأتني بطلب بديل ... تخيل اااااايه؟أنا مش مصدق الست دي...

– ايه يا ترى شوقتني ...؟ دي طلعت حكاية ... لكن يمكن علشان أنا عجوز ماعملتش معايا كدة ... أنا كدة كدة بعطيها أكتر من حقها بكتير ... المهم قولي طلبت إيه؟

– قالتلي ماتاخد بنتي الكبيرة ... قلتلها أخدها إزاي يعنى؟...

قالتلي إنت وحداني وعايز حد يطبخلك ويغسلك وينظف البيت، والبت شاطرة أشطر مني كمان، وهتيجي آخر الليل هتدفيلك فرشتك، دي فرسة، أسمع مني وخدها على ضمانتي ...

قلتلها إنتي أما مجنونة أو مريضة، فيه حد يسلم ضناه بالطريقة دي ... صوتها إخشن وقالتلي جري إيه يا أستاذ ماتعدل كلامك، هو أنا هعطيهالك في الحرام؟! أنا عايزاك تكتب عليها على سنة الله ورسوله، البت فايرة وحلوة وجسمها زي الملبن ...

- وأنت رديت عليها وقولت أيه ...؟

- أنا قلتلها ماشفش وشك تاني وسيبتها ومشيت ... اللي تحسبه موسى يطلع فرعون ...

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... الحمد لله أنك اكتشفت حقيقتها قبل ما تتورط معاهم ...

- الحمدلله ده كرم من عند ربنا ... آل يعني كانت نقصاها ...المهم يا دكتور صحتك عاملة إيه؟

- الحمدلله، بس الوحدة صعبة، وأنت يا صديقي بقي ليك قدر غالي عندى. مش هتكملي حكايتك؟

- أيووووة يا دكتور أنت جيت علشان حكاياتي وحشتك. صح؟

- أيوووووووه... أنت بقيت إسكندراني أصيل ... طبعًا حكاياتك وحشتني كمل يا راجل ... من غير ماتقولي تشرب إيه علشان مش قادر...

- حاضر، هكمل الحكاية علشان خاطرك ...

اتجوزت في ليلة أسطورية بسيطة، لكن جميلة جدًا.

للأسف ماكنش معايا ثمن تسجيل الفرح فيديو زي ما قلتلك قبل كدة أو ماقلتش...مش فاكر...المهم أن كل لحظة محفورة في ذهنى.

كانت جنبي زي الملايكة بفستانها الأبيض ومكياجها البسيط وضحكتها.

كنت حاسس أنها فرحانة أوى. خلص الفرح، وكنت مفهمها ان زمايلي مش هيسيبونا في حالنا الليلة دى.

- هههههه. وعملت إيه؟

- واحنا في وسط الزفة بعد ماخرجنا من النادي رحت طاااااير بالعربية، والشاطر يحصلنى.

أخدتها بفستانها، ورحنا على المكان اللي كنا بنتقابل فيه في المنيل على النيل عند المقياس، ولمسنا الشجرة المحفور عليها حروفنا الأولى جنب القلب.

لمسناها وإحنا متجوزين. عارف لقينا مين هناك.

- ميين؟

- راجل كبير في السن قاعد بيصطاد ومعاه مراته كبيرة هي كمان.

قاعدة على كرسي جنبه بتجهزله السنارة وبتساعده.

الراجل والست دول أكتر ناس فرحولنا؛ لأنهم ساعات كانوا بيشوفونا واحنا بنتقابل، وكانوا بيبتسموا ويشاورلنا كأننا كنا بنعيد قصتهم.

المهم. قعدنا لغاية لما الشمس بدأت تظهر ورجعنا على البيت ... هههه. طبعًا كان كله زهق ومشى. تاني يوم أخدتها علشان نقضي شهر العسل.

- طبعًا أنا ممكن أخمن رحت فين. هههههههه

- أكيد طبعًا جبتها وجينا هنا الشقة دي، كانت بتاعة ابن خال والدي، وهو لا ليه ولد ولا بنت. ساعتها هو أعطاني المفاتيح في الكوشة. قالي اعتبرها ملكك. تصدق كان فعلًا كاتبها بأسمى. عرفت كدة بعد وفاته عليه رحمة الله.

- رحمة الله على أمواتنا جميعًا.

- عشنا أسبوع راااائع بين شواطئ الماريا، واتكللت قصة الحب الكبيرة بالجواز.

- وبعدين؟

- وشها كان حلو عليا جدًا. بالرغم من إنه عدت علينا ظروف صعبة جدًا.

عايز أحكيلك حاجة علشان الشباب اللي بيتجوز، ويستنى المساعدات من الأهل.

مرة في أول جوازنا المرتب خلص، وفاضل يومين على القبض، وهي عارفة إنها تقطع رقبتي ومش هستلف من حد.

كانت المشكلة هناكل إيه. ..... تصدق !!!

لقيتها واقفة في المطبخ وبتعمل حاجة. قلت إيه ده؟! الملايكة نزّلوا عليها أكل من السماء ولا إيه؟

قالتلي: اتفضل على السفرة، الغداء جاهز.

طبق كبير جميل فيه قطع عيش بلدي محمرة بالزيت وعليها ملح. مقرمشة. رووووعة. قعدنا ناكل ونضحك ...

بعد لما خلصنا قلتلها بس عايزين نحلى. قالتلي هي دي حاجة تفوتنى. ورجعت من المطبخ بطبق شبه اللي فات بس بدل الملح على العيش كان سكر.

أجمل وأطعم أكلة كلتها في حياتى. كنت عايز آكل صوابعها وراها. أنا السبب. أنا السبب.

- السبب في اااايه؟

سقطت دموع عمر غزيرة دون إرادته، ووضع يديه على وجهه يغطي تعبيراته ودموعه.

قام الدكتور مصطفى، واحتضن صديقه، وربت على ظهره.

طلب منه أن يغير الموضوع، وعادا للتأمل في جمال الإسكندرية.

اتصل د مصطفى بمطعم الأسماك الشهير الذي يتعامل معه، وطلب من كل ماتشتهيه الأنفس من خيرات البحر ...

كمية الطعام التي وصلت جعلت عمر يضحك كثيرًا.

د. مصطفى أعد وليمة ضخمة لهما.

كلما كف عمر عن الأكل حثه د. مصطفى على الاستمرار؛ فالطعام طازج ولذيذ...

انتفخت البطون، وكان لابد من كوب شاي إسكندراني؛ للسيطرة على هذه الكمية الضخمة التي ملأت بطونهما.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿خلق الإنسان ضعيفًا﴾

صدق الله العظيم

حدث ما لم يتوقعه بعد مغادرة د مصطفى ...

أحس بشعور النعاس المُفقد للوعي يسحب روحه من جسده؛ فألقى بنفسه على فراشه بدون مقاومة.

السابعة صباح اليوم التالي استيقظ على آلام رهيبة في بطنه...

انتفخت وكأنه حامل في الشهر التاسع.

أيقظ د. مصطفى باتصال تليفونى. وصل عنده في الثامنة ومعه بعض الحقن والأدوية.

التاسعة حدث هدوء نسبي، واستطاع عمر التحدث بعد أن كان يتلوى.

تشخيص د. مصطفى أنه تلبك معوي بسبب الوجبة الدسمة بالأمس.

الحادية عشر انتكاسة في الحالة بصورة كبيرة، وقرار بالتوجه للمستشفى.

الألم شديد والطوارئ بطيئة؛ مما أثار حفيظة د مصطفى.. تم تعليق المحاليل والمسكنات مع استدعاء طبيب جراح للاشتباه في انسداد معوي.

بعد الفحص الخارجي استبعد الطبيب هذه الفرضية، ورجح أنها إما المرارة أو التهاب حاد بالمعدة.

طلب أشعة سونار على البطن فورًا، فحضرت طبيبة صغيرة السن ومعها جهاز متحرك. بالفعل وجدَتْ حصوتين عائمتين في المرارة.

طلب الطبيب من عمر أخذ علاج مؤقت، ومتابعة الحالة مع قسم الجهاز الهضمي والجراحة.

عادا إلى المنزل وما هي إلا ساعات قليلة وتم نقل عمر للمستشفى في حالة سيئة.

قرروا إعطاءه مضادات حيوية قوية بعد تشخيص مجموعة من الأطباء أن هناك ما جعل القولون شبه متوقف عن العمل ...

أيام عصيبة قضاها عمر وهو يعيش بين آلامه والمحاليل المعلقة له، ولم يذق لقمة لمدة أحد عشر يومًا ...

المضادات الحيوية وباقي الأدوية أصابت أوردة ذراعه اليمنى بالتهابات حادة، وتوقفت عن الحركة.

طلبوا إجراء أشعة مقطعية بالصبغة، وكانت إجراءاتها مرة الطعم ومقززة؛ فقد أجبروه على تناول زجاجة مياه كبيرة مخلوطة بالصبغة على مرات عديدة.

أظهرت نتيجتها وجود التهابات شديدة في البطن بسبب وجود حصوات وخراج بالمرارة؛ مما أثر على كل الأعضاء الملتصقة به؛ فالتهب القولون التهابًا شديدًا وكذلك الكبد، وازدادت نسبة الصفراء في الدم، وارتبكت نسب إنزيمات الكبد، واضطرب الهضم بشكل كبير.

قرر الأطباء أن يستمر في العلاج حتى تهدأ الالتهابات، ثم يجروا عملية جراحية لاستئصال المرارة التي يبدو أنها كانت ملتهبة ومعطلة عن العمل بسبب الحصوات لسنوات وهو لا يدري، وكلما أحس بآلام في بطنه أخذ أدوية شائعة للقولون بدون فحص طبيب؛ مما تسبب في تفاقم الحالة. هكذا نحن المصريين نشخص لأنفسنا، ونشتري ونتناول الأدوية بلا رقيب، ولا حسيب..

بعد أسبوعين قضاهما بالمستشفى طلب منه الطبيب المعالج الخروج؛ لمحاولة استرداد بعض صحته؛ حتى يستعد للجراحة بعد عشرة أيام.

قضى الأيام العشرة في محاولة لترتيب أوضاعه الصحية ومحاولة لالتقاط الأنفاس...

قبل أن يذهب ومعه صديقه د. مصطفى إلى المستشفى في اليوم المحدد، ويسلم أمره إلى الله بعد أن أبلغهم بمرضه بحساسية الصدر؛ حتى يضع طبيب التخدير الأمر في الحسبان.

كان الزمن المخطط للجراحة نصف ساعة ...

لكن الجراح الماهر بعد أن اخترق جسده بالمنظار من خلال أربع فتحات (الصرة وفم المعدة وفتحتين على جانبه الأيمن فوق المرارة) ظل يحاول الوصول دون جدوى... الالتهابات الشديدة تسببت في التصاقات للدهون وطبقات الجسد الداخلية، وأخفت المرارة بين ثنياتها؛ مما حال دون الوصول إليها لمدة ساعة وربع.

قرر الجراح أن يتم فتح البطن للاستكشاف واستئصال المرارة بجرح كامل، وطلب من مساعده التعقيم وإحضار صواني معدات الجراحة.

أثناء التعقيم وربما من أجل دعاء أو فعل خير قام به عمر من قبل انفرجت الأزمة ...

ووجد الجراح جفت المنظار تحت المرارة العصية، وبدأ في محاولة تسليكها مما حولها بمهارة كبيرة تعكس خبرته وإجادته لعمله...

بعد نصف ساعة أخرى تم استئصالها وخياطة الفتحات.

استفاق عمر ووجد د مصطفى على رأسه، ولكنه عانى من آثار البنج لطول وقت الجراحة.

لم يكن يستطيع التقاط أنفاسه، وكان يومًا رهيبًا في حياته استرجع فيه الكثير من الذكريات الجميلة والكئيبة،،،

كان يومًا بألف يوم..

تمنى لو كان والده بجانبه.

المستشفى وجوها الكئيب ورائحة المرض والموت تتغلغل في جنباتها.

أثناء تحرك عمر لغرفة العمليات عبر أمام العناية المركزة...

هنا في نفس المكان ومنذ سنوات طويلة وقف بالساعات أمام العناية المركزة في انتظار السماح له بدقيقة يرى فيها والده وهو على فراش المرض..

عين الأب تنظر إليه وكأنه يملّي نظره منه.

على فراش المرض تتبدل الأدوار... المريض يرجو الحماية قبل الشفاء...

يرجو أن لا يهان ... يرجو السكينة والرحمة ... يرجو الاحترام والأمان...

الأجل مكتوب لا مفر من لحظاته ... فمهما طال العمر ... هو لحظات...

منذ لحظة الولادة حتى لحظة الممات زمن محسوب ... محسوم.

مهما كانت براعة الأطباء أو روعة الرعاية ... لحظة الانقباض رسالة لقوة تحكم الله في خَلقه ...

من لا يعترف بوجود الله من الملحدين والمتشككين هل يستطيع أن يوقف هذه اللحظة؟!.

هل يستطيع أن يقاوم قوة الله وإرادته، ويمنع انقباض الأرواح؟!.

هل يستطيع منع الروح من الخروج بعدما أمرها الله سبحانه بالتحرر؟!.

لن يستطيع ... لأن الله هو الخالق ... له الأمر كله ... سبحانه!

من رضي بقضاء الله وقدره أعطاه الله من جميل قدره.

من رضي بقضاء الله وقدره فسيشعر بالسكينة والاطمئنان؛ لأن الخير من عند الله دائماً أبدًا.

إذا كان القضاء خيرًا فرحنا وشكرنا، وإن كان القضاء عكس ما نريد فقد منع الله عنا شرًا كان سيحدث ... فلنرضَ بما قسمه الله ونسترَحْ ...

عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شرٌ لكم...

عندما كان صغيرًا كان يخشى كل شيء، ويحتمي بوالده...

انعكس المشهد عندما مرض الأب مرضه الأخير ...

فقد أمسى يخشى كل شيء ويحتمي بولده ... الدائرة تدور والأدوار تتبدل ...

الصغير يكبر، والكبير يهرُم، والهَرِم يموت ...

دورة الحياة تستمر بلا رحمة أو شفقة أو استثناء ...

مازالت عين الأب تراقبه ... لا تفارقه ... يحاول تفاديها، لكنه لا يستطيع ...ربما يتأمله ويملي عينه منه قبل رحيله ...الراحل يشعر قبل سفره الأخير ... تأتيه علامات ... يزوره الأحباب الراحلون ... يدعونه ويبشرونه بالانضمام إليهم ...لا رعب في هذا؛ فهم أحباب ... ربما كانت نظرة رضا

واطمئنان...ربما يعاتبه ... فقد تركه فريسة سهلة بين يدي الأطباء يتلاعبون كيفما شاءوا بجسده الهش الصلب.

تتلاقى عيونهما، ويتحاوران بدون كلمات..

فقط من خلال النظرات.

دموع تملأ الجفون الغائرة تكاد تصرخ وتطلب الصفح والسماح.

على ماذا تصفح وتسامح؟؟ لا يعلم ...

إحساس التقصير يقتل عمر رغم أنه بذل ما في وسعه لإنقاذ والده. استدعى أكبر الأطباء، وضع نفسه وكل ما تملك الأسرة تحت أقدام والده.

الأطباء بحكم عملهم لا يشعرون بما نشعر. الكثيرون لا يملكون الرحمة، أو كانوا يملكونها ونُزعت منهم.

لماذا يطلبون الرحمة منا حينما يصيرون تحت رحمة تخصصاتنا المختلفة؟؟.

لماذا يتعاملون معنا وكأننا آلات أو سيارات يجب أن يفعلوا ما يحلو لهم دون أن نتألم أو حتى نعبر عما بداخلنا؟؟.

صراخ وصراخ وصراخ.....الجسد يصرخ.....والروح تئن.

الأحباب يتمددون على فراش المرض بلا حول ولا قوة إلا بالله.

قد كانوا أشداء.....وحوشًا.....

هل تعرف أيها الطبيب الشاب من هذا الرجل العجوز الراقد أمامك؟؟.

لا لا تعرفه.

هذا بطل من أبطال حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة. إن كنت قرأت عنها...

لتعلم أنه لولا هذا البطل وزملاؤه ما كنا أنا وأنت نحيا مرفوعي الرأس الآن. صناع النصر كأوراق الشجر يتساقطون يومًا بعد يوم.

من نجوا من براثن الموت في الحرب، وكانوا يتمنون الشهادة يرقدون مستسلمين لقدرهم بعد أن تركهم السلاح وزين أيادي أجيال جديدة.

لا تغضب أيها الطبيب، فهذا المسن له الحق كل الحق أن يتحدث ويعبر عما بداخله.

لا تتدخل.....لا توقفه..... لا تعطيه مهدئات؛ لتتخلص من صوته، فقد كان زئيرًا يهز قلوب العدو يومًا ما. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر ... دكت حصون العدو الصهيوني ...

زلزلت الجبال والوديان ... اخترقت الأرض، ووصلت لعنان السماء.

حطمت خط بارليف الرهيب ... ذلك الحائط الحصين خلف المانع المائي المستحيل عبوره ...

هذا الصوت وتلك الصرخة دمرته ... حطمته ... انهارت رماله زائبة في مانعه المائي ...

عبر الرجال وحطموا أنف العدو ... أيام كان عدونا واحدًا ... عدونا معلوم ... عدونا أمامنا ...

رفعوا علم مصر عاليًا خفاقًا فوق أرض سيناء الحبيبة بعد ست سنوات من احتلالها بواسطة العدو الصهيوني الغاشم ...

تحررت الأرض ... احتمى العرض ... رُفعت الرؤوس المنكسة ... ابتسمت الوجوه العابسة ... نطقت الشفاه الصامتة ... ضحكت القلوب الباكية ... عدنا للحياة ...

بفضل صرخته يوم نصره ونصر أُمتنا كلها ...

الآن نخرسها بحقنة في الوريد !!!!!!!!!!....

دعوه وشأنه...

دعوه ينادي ... دعوه يناجي... دعوه يستنجد..... دعوه يحاول ...

فوالله لصوته أعذب من صوت حناجركم الضعيفة الواهنة الصدئة.

هذا الوحش الآدمي قد أصبح جلدًا على عظم.

لا يغرنكم ضعفه الآن.....هو ليس ضعفًا، بل استراحة محارب يعقبها انتفاضة.

ويلكم لو وقعتم في قبضته المميتة.....

سبحان من له الدوام.....

ذهبت القوة مع ما ذهبوا.....وحضر الوهن مع من حضر.....

تلعثمت الكلمات، وتكسرت الحروف، وثقل اللسان....

مازالت عينه الحادة الثاقبة تخاطب عين ولده بثبات.....

ثم..... صمت رهيب..... عين أغلقت جفونها..... جسد استكان واستسلم لنوم طويل تمنى لو كان هادئًا بلا آلام..

الجسد يقاتل كعادته فهو مقاتل بطبعه...

يحتفظ بوظائفه الحيوية تعمل بكفاءة ... لكن المخ تتآكل خلاياه، وتضمر وينحسر الضوء عن أجزاء منه؛ فتصبح معتمة لا أمل في إصلاحها ...

ويبقى الأمل أن يفتح عينيه، ويدرك من حوله حتى ولو لدقائق..

مهما تحدثوا عن السن والشيخوخة وضمور الأعضاء الرئيسية وحتمية النهاية.

رغم إيماني الشديد بما يقسمه الله لنا وبالقضاء والقدر والموت والحياة والبعث بعد الموت والحساب والجنة والنار فإن عقله ما كان ليستوعب ما يحدث لأحب إنسان وأقرب البشر إلى قلبه.....

هتف من داخله ... من أعماق قلبه ... قلبه المكلوم.

فداك عمري كله يا أبى..... فداك كل شيء.....

أقسم أني مستعد للتخلي عن كل شيء في سبيل ألا تتألم.

ليت آلامك كلها كانت في جسدي بدلًا عنك.

ليتنا نتبادل الأجساد والأعمار... ليتني أستطيع اختراق جسدك والتشبث بروحك العطرة ...

أحبك حبًا عظيمًا ليس لأنك والدي، ولكن لصلة روحانية تربطني بك لا أعلم مصدرها.

نادرًا ما كنت تحتضنني أو تمسك بيدي، ومن المستحيلات أن تقبلني. لا أتذكر أنك قبلتني يومًا.

لكن قلبك كان يحتويني أسمع دقاته.

نبضاتك تزلزل أعماقى.

أريدك كما أنت.... أريدك أمامي.....

لا تتحرك..... لا تتكلم..... لا تفعل شيئًا...

فقط ابقِ معي...

ثقلت الأحمال على أكتافي، ونظرة من عينيك تخفف عني كل شيء.

ها أنت على فراش المرض تتحمل الآلام، وقد أصبح جسدك القوي كجسد صَبِي.

يقاوم ويقاتل محتسبًا راضيًا صابرًا صبر نَبِي.

أثبت أيها القوي.....لا تغادر..... أرجوك...

فمازال في العمر بقية...

إذا عدت إلينا فرحنا وحمدنا، وإذا صعدت إلى السماء احتسبنا وصبرنا.

وسأظل وفيًا ما دام في عمري بقية ...

***

أثناء عودته بعد إجراء الجراحة وهو ما بين الإفاقة والخدر عبر أمام غرف كثيرة تشبه غرف المستشفى الذي غادر منه والده...

وصل لغرفته، وتذكر الغرفة رقم ٩ الجناح الشرقي.. سُجِّي جسد والده على الفراش ...

ترآى له جسد والده الهزيل حينما دبت فيه الحياة، وطلب الطبيب المعالج أن ينقله من الرعاية إلى الغرفة المحببة إليه في الجناح الشرقي...

استقبلته ليلتها رئيسة القسم بالترحاب والتهليل، واجتمع الأهل والأصدقاء ...

كانت ليلة جميلة..

ظن أن الحياة قد عادت لوالده... لم يعلم أنها ... صحوة الموت ...

استفاقة ما قبل المغادرة....

نام معه كمرافق رغم صغر سنه؛ فإنه كان رجلاً يُعْتَمد عليه....

ظل يتحدث معه، حتى نام على كرسيه بجواره...

استيقظ على أذان الفجر وجد والده نائمًا؛ فعاد لغفلته حتى الصباح...

نادى عليه ليوقظه لم يستجب...صرخ في أذنه...باااباااااااااا.....

حاول الأب أن يفتح عينه اليمنى لكن لم يستطع؛ فرجف جفنه، وتحركت يده اليسرى سنتيمترات بطريقة عصبية، وكأن الجسد يقاوم مغادرة الروح.

صرخ عمر على الأطباء؛ فدخلوا وأزاحوه، وأخرجته الممرضة من الغرفة، وأغلقتها على الأطباء والوالد المحتضر...

نجح الجسد في السيطرة على الروح قبل أن تنطلق ...

أعادوا الأب للرعاية المركزة، ولكن هذه المرة في حالة سيئة وخطيرة...

لم يغادر عمر كما وعد والده. ظل مرابطًا إلى جواره.

يدخل يطمئن عليه، ولكنه كان فاقدًا للوعي ...

بعد يومين دعموا تنفسه بجهاز التنفس الصناعي الذي مزقت أنبوبته أنسجة رئته اليمنى؛ فنزف دماءً طاهرة كانت تذبح قلب عمر كلما شاهدها تقطر من فم والده...

ثم توقفت كليته عن العمل، فبدأوا إجراءات الغسيل الكلوي ...

عانى الكثير، وتمنى ألا يحس بالألم ...

من اليوم الخامس في شهر يولية إلى اليوم السابع من شهر أغسطس الذي كان يوافق يوم التروية، حيث يبدأ الحجيج في النفير من مكة إلى مِنَى لبدء مشاعر الحج.

في هذا اليوم العظيم فاضت روحه إلى بارئها... أخيرًا استسلم الجسد، وسمح للروح النقية بالانطلاق ...

كأنه كان يمنعها راجيًا أن تنتظر الأيام المباركة، وكأن روحه نفرت مع الحجيج ...

بدأت رحلتها مع رحلتهم؛ لعل الله يمنحها السلام والطمأنينة والعفو والمغفرة كما أعطى حجاج بيت الله.

عندما استفاق عمر السباعي من المخدر طلب ورقة وقلما...

أراد أن يرسل لوالده رسالة من عالم الظلام إلى عالم النور... كتب فيها والدي الحبيب الفقيد الغالى

أرسل إليك قبلاتي وأحضاني وأشواقي من أعماق قلبى...

كنت مطمئنًا أنك لن تغادرنا قبل أن تصل لمثل سن جدي... والدك...

لكنك خيبت توقعي وظني ...

صحيح الموعد محسوم ... مسجل في صُحفنا ...

لكني ما كنت أسمح لعقلي بالتفكير في هذا المشهد الرهيب ...

تمنيت لو تستمر الحياة بنا ... بلا مغادرة ... بلا فراق ...

صعب هو فراق الأحباب ... دامي للقلوب ...

يوم مغادرتك لم أستوعب الأمر... تجمدت مشاعري....

توقف عقلي عن التفكير.... تعطل...

تشابهت الوجوه حولى... لا ملامح.....

كأنني داخل فقاعة هواء كبيرة.... عُزلت عن العالم الخارجى...

اختلطت الأصوات... أصابني الصمم.... بُكِّمَ فمى...

سحابات بيضاء تزيد الغيامات على عينى... عُميت...

فقدت قوتى.... ترنح جسدى.. كدت أسقط..

لولا تذكري كلماتك...خليك رااجل... تمااسكت...

يوم فراقك.....

أحسست أنني كما الشجرة التي أقتلعت من أعماق الأرض...

انخلعت يا والدى...

انتزع قلبي من جوفى...

تحطمت ضلوعى... تكسرت عظامي ... خارت قواى...

كأنني أقف عاريًا في حوض سباحة سحبوا منه الماء فجأة، والناس من حولي ينظرون نحوي بتعجب وشفقة...

رغم ما يراني الناس عليه من ثبات وقوة...

كلما تذكرت ... تتجمد الدماء في عروقى... تبحر الدموع خلف جفوني...

تبخرت وكأن ما تحت ملابسي لا شيء...

فقد أصبحت يومها بالفعل لا شيء... تعريت ...

فقدت عمودي الفقرى... فقدت الحكمة ... فقدت السند ...

لم تذرف عيني دموعًا كما المكلومين... لا أعلم السر حتى الآن ...

رغم اعتصار قلبي وإحساسي ببكائه داخل صدري فإن عيني أبت أن تخذلك...

فقد ولدتني رجلًا، وسأظل على العهد...

عاهدتك ألا أتركك كما عاهدتني دومًا ...

وها أنا مهما طال الزمان لن أترك ذكراك...

بالتأكيد أنت في عالم نقي مضيء ...

أعلم - يا والدي - أنك التقيت بأحبابك الذين سبقوك...

قلت لي وأنت على فراش المرض الأخير إن والدك زارك، ويرسل إلينا تحياته...

لعلك مستمتع بدفء أحضان جدي وجدتى... والدك ووالدتك...

أعلم أنك كنت تحبهما حبًا عظيما...

سأمد يدي يا والدي ... أرجوك ألمسها ...

فقد كان كل حلمي أن ألمسك مرة أخيرة ...

أنا على يقين أنك تسمعنى وتشعر بي وتعلم مقدار حبي لك ...

لكنك تأبي أن تزورنى.... لماذا؟....

هل أغضبتك في شيء؟ ...

هل قصرت معك وقت مرضك؟ أو قبله؟ ...

هل ترى حزني العميق على فقدانك مصطنعًا؟ مبالغًا فيه؟ ...

كلا، يا والدي، والله الذي لا إله إلا هو ما يشعر بما في داخلي سوى الله المطلع على ما في القلوب ...

مازلت أتذكر نظراتك المباشرة لعيني قبل الفراق...

أعلم أنك ماكنت تريد أن أنقلك للمستشفيات ... أعلم أنك كنت توصيني بذلك ...

لكن كيف بالله عليك وقد تمكن المرض منك ...؟!

كيف كنت أتركك تصارع المرض وحيدًا دون تدخل الأطباء...؟!

أعلم أنهم لم يهبوك ثانية في الأجل المكتوب المحسوم ...

لكني بشر... أنا إنسان ... تحكمني قوانين البشر ... لا أعلم الغيب...

أرجوك... نظراتك تمزقنى... لا تعاتبني ... ربما لم تكن معاتبة...

إذا كانت اشتياقًا لما بعد المغادرة ... لماذا لا تزورنى؟...

أنتظرك كل ليلة... أتوسل إلى الله أن يسمح لك بزيارتى.....

وحشتني ابتسامتك... وحشني صوتك... حتى غضبك وحشنى... وحشتني ثورتك ثم انطفاؤها داخل قلبك الأبيض الطيب ...

اذكرني عند ربك حتى يحين اللقاء ...

أرجو الله أن يجمعنى بك في روضات الجنات ...

أستودعك الله يا أغلى من أحببت في هذه الدنيا داعيًا الله عز وجل أن يؤنس وحدتك، وينير قبرك، ويجعله روضة من رياض الجنة، ويغسلك بالماء والثلج والبَرَد، وأن يغفر لك ويرحمك، ويبدل سيئاتك(إن كان هناك) بالحسنات، ويجبر خاطرك وخاطرنا، ويجمعنا في الجنة إن شاء الله نحن ومن نحب...

والسلام عليك يا والدي ورحمة الله وبركاته.

ثلاثة أيام قضاها عمر في غرفته بالمستشفى من أصعب الأوقات.

د. مصطفى دمعت عيناه كثيرًا، سواء بعد قراءته رسالة عمر لوالده، أم أثناء استفاقة عمر؛ فقد كان يهزي بكلمات غريبة (أنا السبب. سامحيني يا حبيبتى. والله بحبك. أنتي فين؟ أنا محتاجك جنبى. أنا ندمت. حرام عليكى. أنا تعباااااان).

هل ظلم عمر أحدًا؟! ...

ربما ...

الظلم نيران تلتهم معنويات المظلوم مع ما يغتصبه الظالم منه ...

المظلوم أحل الله له القصاص، وكذلك ترك له الباب مفتوحًا للعفو والمغفرة ...

سيرد الله المظالم إن آجلًا أو عاجلًا ...

لا تخرج من دائرة الإيمان بالله؛ لكونك ظُلمت لعله خيرًا لا تعلمه... الله يعلمه.

فقط احتسب عند الله، ولن يضيع حقك أبدًا...

وربما لا ...

من يدري ماذا حدث لهذا الشاب؟ ... لابد من معرفة الحقيقة.

اتخذ قرارًا بمحاولة لم الشمل؛ فقد تخيل أنه فارق زوجته وهجرها بعد حدوث مشكلة ما.

كان تليفون عمر معه ...

بدأ في تجربة الأرقام إلى أن اهتدى لاسم سيدة وصفها عمر بصديقتى...

رحلة قصيرة إلى القاهرة استغرقت ساعات.

قابل فيها صديقة عمر السباعي، وشرح لها كل ما حدث خلال الفترة الماضية.

استقبلت د مصطفى وكلماته بفرحة داخلية وفتور خارجى.

عمر جرح مشاعرها كثيرًا، ولم يبالِ بحالتها النفسية، ولا بحبها الجارف له.

تعارفا أثناء رحلة له في أسوان والأقصر، وكانت مرشدة سياحية، والتقيا بالصدفة، وتوطدت العلاقة بينهما، ثم اكتشفت أنه متزوج، ويحب زوجته، وأنها مجرد صديقة...

لكن حبها له جعلها ترضخ، وتوافق على هذا اللقب متعدد المعانى..

فقد كانت تؤمن أن للقلب غرفًا فارغة من يملأها يستحوذ على جزء منه، ويحصل مع الأيام على لقب حبيب، وليس صديقًا ...

الحب أكسير يسري في العروق مجرى الدماء.

يتجمع في القلب ... القلب يضخه للعقل فيسلبه.... وللعين فيسحرها.... وللأذن فيطربها..

ثم يحاصر الروح بسحاباته الشفافة، ويندمج معها، وتصبح الحبيبة روحه.

عندما يتمكن الحب من الروح والجسد من الصعب انتزاعه إلا بخسائر فادحة.

من منا معصوم من الخطأ؟؟....

الخطأ وارد ....

لكن جرح الحبيب دامٍ.....

دموع الندم تغسل خطايا المذنبين.....

من يحب صدقًا.... يغفر .....

الله يحب عباده.....الله غفور رحيم .....

***

المسافة من القاهرة للإسكندرية قضتها بجوار د. مصطفى وهي تستعيد ذكريات الماضى.

منذ تعرفت على عمر السباعي ....

حتى يوم مغادرته التي ترسخت في ذهنها بمسمى الهروب...

اتصاله بها وهو يبكى...

لم تسمع منه سوى همهمات وبكاء وطلب المسامحة...

آخر كلماته منذ شهور....

أوعي تنسيني.. سامحيني إنتي كمان..

أنا ظلمتك معايا.. أنا إنسان أنانى...

ما استحقش الحياة.

هو لم يواجه، حتى لو كان مخطئًا..

لم تعهده ضعيفًا كما سمعته المرة الأخيرة.

حتى لو كان هناك خطأ...

من لا يخطئ....

الأديان جميعها تشير إلى أن الإنسان لابد أن يخطئ، وباب التوبة مفتوح لمن يريد....

حتى لو أخطأ مرات ومرات...

طالما أراد العودة سيجد الباب مفتوحًا....

فإذا كان باب الله لا يغلق فهل أبواب البشر أعصى؟....

من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر...

إن الله يغفر الذنوب جميعًا...

كلنا مخطئون ....

خير الخطائين التوابون ...

نحن لا نريد الخطأ...

الفطرة التي ولدنا عليها بلا أخطاء...

لكن بداخل كل منا كائن لا نعرفه.....

يدعونا للخطأ.... أو يدعونا للصواب..

يتمكن منا أحيانًا بل غالبًا...

لا تشرْ إليه بأنه الشيطان...

الشيطان يغادر عند الاستعاذة...

الشيطان يدعوك للخطأ..

إذا ما قاومته سيذهب ويعود بفكرة خطأ أخرى، أو باب من أبواب جهنم يفتحه لك على مصراعيه، ولكنه لا يتوقف...

أما من بداخلك فيظل يصور لك الأفكار السلبية، ويدفعك دفعًا لحافة الجنون....

تحاول إيقافه، لكنه لا يتوقف...

تلتفت وتنشغل، ويعود ليضع أمام عينيك صورًا ربما تكون غير حقيقية ومبالغًا فيها؛ فتنطلق أفكارك خلفها متشبثة ببقايا خيوط سرابها....

ويقع الخطأ...

لو تركنا لحالنا لما أخطأنا، ولما تحولت معظم حياتنا لتعاسة وشقاء...

من يستطع السيطرة عليه ينجُ...

من يستطيع؟؟...

ليس له جسد؛ فهو يسكن أجسادنا ....

يستطيع التحكم في أعضائنا، ولا نستطيع لمسه...

يحدثنا ولا يمل .....

يؤجج نيران الفتن، ويشعل فتيل المعارك الوهمية؛ فتترسخ في أذهاننا، ونحولها لحقيقة مدمرة.. لا يصمت إلا مع الصمت الأخير ....

يغادر مع الروح...

عندها فقط يستريح الجسد راحته الأبدية...

لكن بعد ماذا؟...

وماذا بعد؟...

فقد انتهى كل شيء، ولا عودة للخلف...

عقارب الزمن لا تعود للخلف...

كعود الثقاب إذا اشتعل فما يحترق منه لن يعود أبدًا...

إذًا الحل أن نسيطر على هذا الكائن المزعج ...

السؤال الأهم هو ... كيف؟؟؟...

***

وصلت أمام باب حجرته، وتسمرت قدماها وكأنها تحجرت...

ربت د. مصطفى على كتفها برفق يدعوها للدخول...

زحفت قدمها اليمنى، ولم ترضخ لها اليسرى؛ فكادت تسقط لولا أنها سندت بيدها على المقبض، ووضعت جبهتها على الباب، فشعرت وكأن الحنين يسري في جسدها؛ فتحررت قدماها ...

توارب الباب لما دفعته دفعة ضعيفة، فرأت جسده وقد أصبح هزيلًا ممددًا على الفراش.

ودت لو تحتضنه، وتضمه إلى صدرها الذي افتقد رأسه الذي كان دومًا ما يفترشه وسادة ناعمة طرية، يغوص في أعماقه، وينعم بالسلام والاستسلام لدفئه؛ فينام متمتعًا بحنانه، وتنام مطمئنة لوجوده بداخلها.

ربما لم تستطع الحفاظ عليه، أو بمعنى أدق الاستحواذ عليه ...

لجهل منها أم لحبها الشديد له، وقد ألهبها بنيران الغيرة؛ فأحرقته ولم تلسعه ...

قرأت لحكيم أن الحبيب مثل الطائر الصغير لو وضعته في كف يدها وبسطتها سيطير..

وإذا أطبقت عليه بقوة خنقته وفقدته.

كانت حكمته أن تترك له مساحة ليحس بالأمان والحرية..

هو مازال في يدها، فيتنفس ولا يطير، وكذلك لو وضعته في قفص مغلق

سيظل يحاول ويحاول حتى يجد مخرجًا؛ ليغادر بلا عودة خشية الحبس.

أما لو تركت له الباب مفتوحًا...

ربما يغادر..

لكنه سيعود حتمًا طالما ... يحبها...

مع التكرار لن يغادر... لأنه سيجد ضالته وراحته داخل عشها...

سيظل دومًا يشعر بالأمان؛ لأن الباب مفتوح، ويستطيع المغادرة متى شاء..

لكن رغبته ستنتصر بالبقاء...

وتكون هي انتصرت بالدهاء ...

ليتها طبقت ما قرأته...

ليتنا نتعلم مما نقرأه أو نشاهده ...

التاريخ يعيد نفسه في حكايات وروايات، ولكننا لا نتعلم ...

الشوق له يجذبها؛ فتدنو هامسة في أذنه:

- سلامتك يا حبيبى.

الصوت مألوف لديه، وكذلك الرائحة...

رائحتها العطرة الذكية يعرفها ولو وسط مئات الروائح ...

الحلم جميل؛ ليته يستمر هكذا حدثته نفسه وهو مغلق العينين.

مررت أصابعها بين موجات شعره؛ فأحس بسريان الدفء في جسده.

طبعت قبلة رقيقة على خده؛ فزاد استمتاعًا بالحلم، وتمنى أن يكون حقيقة.

استدار في رقدته، وأصبح نائمًا على ظهره، ودون أن يفتح عينيه أمسك يدها التي تداعب خصلات شعره، وأمطرها بالقبلات، ونزفت من عينيه دموع ندم الفراق...

– مهما حصل أوعي تسيبني تاااانى. أنا كنت بموت من غيرك. مش أنت اللي علمتني المواجهة. مش أنت اللي بتقول: المواجهة قوة والهروب ضعف. مش هو ده كلامك. هربت مني ليه؟

مازال مغمض العينين يتمتم....

هذه الكلمات سمعها قريبًا.....

نعم إنها للدكتور مصطفى نادى عليه بها حينما توجه للبحر؛ ليحتضن أمواجه، ويتخلص من حياته.. ودون أن يفتح عينيه:

– انتي بتقولي المواجهة قوة والهروب ضعف...ده كلام د. مصطفى مش كلامي، انتي تعرفيه إزاى..؟

يتدخل د. مصطفى ماسحًا على رأسه بيده:

– لا يا عمر الحقيقة دي كلماتك أنت... فاكر لما وقعت والناس نقلوك لشقتى..كنت بتمتم بالجملة دي وأنت في هذيان فقدانك للوعي: (المواجهة قوة، والهروب ضعف).

فتح عينيه، وتحسس وجهها بيديه...

كأنه فقد البصر.....

ليست ملامحها.....

الصورة مشوشة.....

حبيبةُ زوجتُه؟....لا ليست هي....

ليتها عادت....

من غادر لن يعود....

ليته ذهب إليها... ليته غادر معها...تمنى ويتمنى، وسيظل يتمنى.....

لكن من هذه المرأة التي تلمس وجهه بلا حياء؟

تعلقت عيناه بعينيها في لحظات حوار صامت بينهما ...

لا يعرف لغته إلا العشاق ...

تعانقت نظراتهما، وتلهفت روحاهما للعناق بعد طول غياب ...

- ياااااه... جهاااااد....أنا ماعملتش حاجة وأنتي صممتى....

- بلاش نتكلم دلوقتي لما تقوم بالسلامة يا عمرى.

- قلتلها كتير...أنا مش بخونك ... جهاد صديقتي بس ... أنا مش مذنب..أنا بحبك يا حبيبة...

بس البريء لما يحس بالظلم بينفجر في وقت كان ممكن حد يطبطب عليه...

أمال الحب إيه..؟ الحب ثقة....

لما أحس أني متهم دايمًا بدون سبب وعلى الفاضي والمليان أكيد في وقت هزهق، وأقول طالما كده كده متهم...

خلاااااص أعمل كل حاجة أو ... هصدق أني كدة....

- علشان خاطري بلاش نتكلم دلوقتي يا عمر...

وضعت أصابعها على جبهته، وحركتها على عينيه وكان المهدئ قد سرى في جسده؛ فنام ويدها على وجهه، ورائحتها تداعب أنفاسه.....

ظلت إلى جواره تمسك يديه، وتنظر لوجهه الهادئ النائم....

تذكرت أجمل الأوقات التي قضتها برفقة عمر.....

ليتها كانت تملك مفاتيح قلبه كما امتلكتها حبيبة من قبلها...

لطالما كانت تحسدها... رغم أن حبيبة كانت تعذبه بغيرتها القاتلة..

فإنه كان متمسكًا بها لأقصى الحدود...لِمَ لا وهي زوجته وحب حياته...؟!

لم يكن يخجل أو يخفي شيئًا على صديقته جهاد... كان يشتكي إليها من غيرة حبيبة...

لكن عينه كانت تفضحه كلما ذكر سيرتها... عين العاشق تفضحه.....

لماذا نسمي العشق فضيحة؟؟... حتى عشق الزوجة؟؟؟!!!!!!...

غريبة هي أفكارنا....

غادرت الغرفة مع د. مصطفى، وجلسا في الكافيتريا المجاورة في انتظار إفاقته.

- ممكن تقوليلي إيه حكاية عمر من فضلك؟

- دي حكاية طويلة يا دكتور... عمر صديق عمرى..أخويا..حبيبى.. كل حاجة عندى.. لكن حبيبة عنده حاجة تانية خاااالص...

- حبيبة مراته؟؟

- مراته أيوة...الله يرحمها...مع أني كنت بعتبرها ضرتى...لكن كانت ملاك ماشي على الأرض... مشكلتها كانت في غيرتها الرهيبة على عمر.

- الله يرحمها... هي ماتت إمتى؟ وإزاى؟؟...

- بص هي انتحرت قبل ما عمر يختفي بأيام قليلة... عقله طار يا حبة عيني لما شاف جثتها..

- هي حبيبة انتحرت ليه؟؟..

- مش عارفة.. هو قالي إنها انتحرت...الناس والشرطة في تحرياتها قالت إنها داخت ووقعت من البلكونة، ومافيش شبهة جنائية...

- طيب ليه عمر قالك إنها انتحرت؟؟..

- مش عارفة... كان في حالة صعبة جدًا وهو بيكلمني في التليفون، وقالي إنه رايح يخلص الدنيا من الشياطين ومن نفسه، وانقطع الخط واتقفل التليفون..حاولت أوصله ماعرفتش إلا لما حضرتك كلمتنى...

- الجدع ده خليط من الألغاز.. بس لازم نعرف علشان نساعده...

- ياريت يا دكتور تساعده...عمر جدع جدًا...

- لما يطلع من المستشفى بالسلامة بكرة الصبح لينا كلام تانى... هتنامي فين النهاردة..؟

- فين إيه...أنا معاه مش هسيبه أبدًا... اتفضل إنت يا دكتور علشان تستريح، وهنتظر حضرتك بكرة إن شاء الله..

- أوك... أشوفك الصبح...سلام.

عادت إلى جوار عمر تقرأ آيات من القرآن، وتبتهل وتدعو الله أن يشفيه..

استيقظ من سكرات المخدر، فوجدها نائمة كالملاك على الكنبة بجوار فراشه..

جهاااد.. من أتى بها إلى هنا؟؟... كيف عرفت مكانى؟؟.. من دلها؟؟..

رأسه يكاد ينفجر من أثر المخدر....

تذكر الأسبوع الأخير قبل أن يرتكب جريمته، ويغادر هاربًا للإسكندرية...

توقف عن التفكير بعد أن دخلت الممرضة، وغرست في ذراعه ملليجرام من المخدر الذي أوصى به الطبيب المعالج...

استسلم لنوم عميق.....

لما استيقظ كانت جهاد قد أحضرت عاملة النظافة، ورتبت الغرفة، وزينتها بالزهور...

حضر د. مصطفى، وأنهى إجراءات الخروج، واصطحبهما لشقة عمر بمصطفى كامل..

جهزت له الفراش، وتمدد وجلسوا أمامه....

علامات الرضا تعلو وجه عمر مع ابتسامة د. مصطفى المعتادة مع تسبيلة جهاد التي تكاد تلتهم عمر لولا وجود د. مصطفى...

– أنا مش عارف أشكرك إزاي يا دكتور.. لو والدي عايش مش هيعمل اللي أنت بتعمله علشانى...

– يا عمر، مش إحنا اتفقنا... أنت صديقي ولا اااايه...

– وكمان جبتلي الوردة اللي فاضلة في حياتى... أحب أعرفك عليها.. دي جهاد بنت مصرية أصيلة وجدعة.. لما بقول مصرية يعني الأصل والأصالة والجدعنة والجمال وكل حاجة...شاربة من نيلها يا دكتور...

– واضح جدًا يا عمر.. أنا لما كلمتها ورحتلها ما انتظرتش... جت معايا على طول.. واضح إنكم عشرة طويلة.

– طبعًا يا دكتورعمر، ده عشرة عمر زي ما قولتلك...

– قولتيله إيه يا استاااااذه؟؟ هههههه.

– لاااااا ده سررررررر هههههه...بس مش هسيبك تاني يا عمر... مش هتضيع مني تانى....

– يا ستي، لا تاني ولا أولاني أنا معاكى...مش هروح في أي مكان.

– عمر... هو إنت بتحب حبيبة، ولا بتحب جهاد، ولا بتحب مين بالظبط ...؟ أنا اتلغبطت، وبصراحة كنت منتظرك تقوم بالسلامة علشان أسألك عن الموضوع ده، وكمان أعرف منك حقيقتك كلها ...

– طيب يا دكتور تفتكر الروابط بين الناس أقوى لما تكون بالعقل والفكر ولا بالقلب والعاطفة؟؟! ...

– كل واحد يا عمر ليه فلسفته في الحياة، وبالذات في الموضوع ده ... علشان كدة أنا سألتك بتحب مين، ومنتظر تجاوبني إجابة منطقية فلسفية، وإحنا اتفقنا قبل كدة إن الفلسفة هي علم البحث عن الحقيقة ...

– طيب أنا هشرحلك وجهة نظري يا دكتور، ولو أنا غلط صلحلي كلامي، وناقشني من فضلك ...

– كلمني عن ارتباط الفكر والعقل وارتباط القلب والروح، وهل فعلًا الفكر هو العقل؟؟!...

– فعلا يا دكتور... الفكر هو ناتج العقل... بس اسمحلي أكلمك كأني هكتب مقالة أو خطاب علشان أقدر أوصل المعنى بطريقة دقيقة شوية ... بس ما تضحكش من أسلوبي ... أوك؟

– اتفضل طبعًا، اعتبر نفسك في محاضرة، وإحنا الطلبة ... كلنا آذان صاغية ...

– تمام ...العقل بيربط بين البشر برابطة تعاقدية..يحكمها قانون غير مرئي...

من بنود سُطرت لتتحكم في هذه العلاقة بطريقة رسمية غير مفصح عنها، تغلفها الابتسامات والضحكات والدموع والغضب، ولكن باطنها المصالح والمكاسب وتجنب الخسائر...

أما الحب فهو التجرد من كل هذا الزيف في العلاقة...

فتذوب فيه الروح في روح محبوبه، وتختلط دقات القلوب؛ لتكتب نوتة موسيقية تعبر عن مشاعر طرفي الحب معًا...

مع اعتقادي المخالف لكل الآراء بأن القلب لا يسع إلا حبًا واحدًا فقط وإلا ما أحببنا الله ورسوله في المقام الأول مع حب الحبيب والشريك والزوج والزوجة والأبناء والأصدقاء والعمل، وما نريد أن نكون عليه من حب للمظهر والمعاملات والروحانيات، بالإضافة لحب المقتنيات التي تحببنا في الحياة....

كلمة الحب... شاملة لا تقتصر على أحد أو شيء....

كل نسيج من أنسجة القلب يستطيع أن يحب، ويغلف محبوبه بأوردته وشرايينه التي تجري بها دماء هي نفسها تجري في أوردة وشرايين أنسجة أخرى بجواره...

القلب يتسع لمن يستطيع إيقاظه وضخ الدماء بين جنباته...

ليس معنى أن قلب الإنسان يسكن جنباته نبض ألا يستقبل نبضًا مختلفًا، فربما إعادة تشكيل حروف النوتة الموسيقية لدقات القلب تنتج مزيجًا رائعًا

من النغمات التي تزيد من ضخ الدماء المحفزة النقية للجسد؛ فينتفض بعد سكون، ويستعيد نضارته وبهاءه؛ فتستفيد جميع أنسجة القلب من هذا الانتفاض، وتتحرك الخلايا، ويزداد النشاط، وينعكس هذا على الحياة بكاملها؛ فتتحول السلبيات لإيجابيات....

أما عن علاقة العقل المحسوبة فهي تتلاشى وتنفصل وتنتهي بسهولة؛ لأنها مبنية على مصالح ورسوم بيانية وبنود قانونية يستطيع العقل فسخها وقت أن يشاء طالما تنازل عن شروطها الجزائية إن وجدت.....

أما الحب فصعب جدًا أن ينهدم بسهولة؛ لأنه حفر مكانًا عميقًا في أنسجة القلب.. وخسارته هي خسارة لجزء من القلب؛ وبالتالي سيؤثر على حيوية باقي الخلايا ونشاطها، وسيصاب الخاسر بإحساس فقد عميق ربما يودي بحياته..

أو على الأقل بيموت فيه شيء... جزء... شعور... الخسائر هنا كبيرة....

الحب كنز ... الكنز مخبأ في القلوب المحبة للخير والكارهة للشر...

أحيانًا تتحطم قلوب تحتوي على كنوز ثمينة ...

الكنز المتواري بين الأنقاض سيأتي يومًا غواص ماهر سيزيل الأنقاض عنه، ويستخرجه إما يستمتع به.. وإما سيراه من افتقده؛ فيترك منقذه ويعود لصاحبه... القلب إذا انكسر تندمل أنسجته، وتظهر بين أنقاضه انعكاسات لامعة تجذب الغواص الماهر لمكان الكنز...

فقط يجب عليه أن يغوص بمبدأ لا ضرر ولا ضرار، فالقلب الكسير لايحتمل التشهير بكنزه المدفون بداخله...

إما أن يحافظ عليه أو يتركه لشأنه... المهم لا يعرضه لأخطار القراصنة....

- تعبير رائع ... لكن أنا ما فهمتش منك برضه، أنت حبيت مين فيهم بجد؟؟ ...

- يبقي فعلًا أنت مافهمتش محاضرتي يا دكتور هههههههه ...

- يابني وضح أكتر ...

- طيب هختصرلك الموضوع في أن حبيبة دي حب حياتي كلها ... اللي شقيت واتعذبت لغاية لما بنينا مع بعض عشنا وحياتنا ...

مهما حصل بعد كدة من مشاكل وصراعات وغيرة منها وغضب وعصبية مني وحاجات كتير إلا أن مكانها المحفور في قلبي كانت الأنسجة مخبياه ...

قافلة عليه وموصلة شرايينه ودمه لجسمي كله ...

علشان كدة الاستغناء عن حبها كان معناه حكم الإعدام عليا ...

وبالتالي حافظت بكل ما أملك من قوة على مكانها في قلبي، وحتى بعد ما سافرت عند ربنا، واسمحلي إني أستعير منك التعبير ده ...

هيفضل مكانها في قلبي ماحدش يقدر يجيبي جنبه أبدًا ...

أما جهاد فهي متربعة في جزء خاص بيها، لو فيه ميكروسكوب بحيث نعرضه على الشاشة هتلاقيه بينبض بدم جديد دايمًا ... دم بيساعدني على وجودي في الحياة ... يعني الجزء اللي بيخليني أحس إني لسه عايش ... خليط من العقل والقلب ...

نكهة جديدة جميلة ليها طابع خاص جدًا ... وبالذات إنها حافظت عليا، ورضيت إنها تكون مرتبطة بيا في الظل ... عمرها ما سببت مشكلة أو طلبت حاجة لنفسها ... نموذج للصديقة الحبيبة المتفانية بلا مقابل ... واحدة غيرها بعد كل محاولاتها دي كانت زهقت، ورفضت حتى تتكلم معايا ... لكن هي شبه النجوم المختفية اللي بتنورلنا حياتنا ... ساعات تشوف تابلوه جميل تستمتع بيه، ويكون سبب نجاح مكان، ويمكن المثال ده مثال حي. جنب بيتنا فيه معرض موبيليات بيعرض أثاث جميل ... لكن أنا كتير بادخله علشان أتفرج على لوحة مرسومة، وأكيد طالما دخلت بتعجبني حاجات بشتريها، وسنين أطلب من صاحب المعرض اشتري اللوحة بيرفض، وبيرفض كمان يعرفني على اللي رسمها ... أهو اللي رسمها ده اللهو الخفي هو سبب نجاح وسعادة المعرض وصاحبه وكل العاملين فيه ... مش عارف قدرت أوصلك فكرتي ولا لأ، بس هو ده شعوري ناحية جهاد ...

– تمام يا عمر... أنا اتعلمت منك كتير ... إنت إنسان جميل....ربنا يكملك بعقلك، ويشفيك ويعافيك ... بس أنا عايز أعرف الحقيقة بتاعتك كلها ... إنت جيت ليه؟ وهربت من إيه؟ وكنت عايز تنتحر ليه...؟ ياابني عايز أطمن عليك..أنا راجل عجوز ما تتعبنيش أكتر من كدة هههههه.

- حاضر، يا دكتور، أنا هحكيلكم على كل حاجة علشان أستريح، واللي عايزين تعملوه اعملوه...

- اتفضل، كلنا آذان صاغية.

- طبعًا أنت عرفت أن حبيبة.. حبيبة قلبي رحمة الله عليها.. كانت غيورة لدرجة قاتلة، وكانت جهاد صديقتي، وأنا عارف شعورها ناحيتي، بس هي عارفة حدودنا مع بعض وموافقة...

- تمام...كمل.

- حبيبة اكتشفت صداقتي لجهاد ... حبيبة الغيرة كانت هتقتلها ...

حاولت أشرح لها إنها مجرد صداقة عادية... كان لا يمكن إقناعها أبدًا...

المشاكل زادت جدًا بيني وبينها ... كانت عنيدة بس بعشقها ... بعشق عندها ... بعشق غيرتها وبكرهها في نفس الوقت، هتقولي أنت متناقض أو بتناقض نفسك هقولك قول زي ما أنت عايز ...

المهم أني بعشق كل حاجة فيها ...

إيجابية أو سلبية ... كانت روحي وحياتي ...

لما ضغطت عليا استسلمت، وفضفضت لجهاد ... أخدتني في حضنها...

في وقت كنت محتاج حضن دافي، وحد يسمعني، لكن برضه حافظت على خيط رفيع بيني وبينها ...

أنا عارف إن جهاد كانت هتتجنن وتقطعه ...

بحكيلك قدامها ومش محرج منها؛ لأنها حقيقة..هي حاولت كتير، وأنا صديتها كتير ...

مش عارف ساعتها أنا ظلمتها ولا كنت باظلم حبيبة، ولا حبيبة ظلمتني؛ فأنا كمان ظلمت نفسي ...

دربكة نفسية خلتني أكره حياتي كلها ...

بدأت أهمل شغلي اللي بحبه، وعلاقتي برؤسائي بدأت تتوتر؛ لغاية لما قدمت استقالتي ...

مافيش شغل تاني قدامي ...

جهاد كانت بتساعدني لغاية لما وفرت ليا فرصة عمل كمدير أمن فندق كبير من خلال شغلها في السياحة ...

جهاد بقت جزء مهم ورئيسي في حياتي كلها ... ماينفعش أستغني عنها...

الخلاف مع حبيبة كان شديد، لكن الحب اللي بينا كان أقوى...

الموضوع كبير ... اتخيل أنه بدأ من خوف والدها من الجوازة دي ...

بالتأكيد كان بيحاول معاها كتير، وبيقولها كلام مع الأيام اتخزن في ذاكرتها ...

هو كان بيصدرلها أن الضباط عندهم قسوة ومش موجودين على طول، وحياتهم هي شغلهم، وكمان عينيهم زايغة علشان شايفين نفسهم شويتين...

كلام كان بيوصلي منها في فترة قبل الجواز ...

مش المثل بيقول: (الزن على الودان أَمَرّ من السحر) ...

شخصيتها كانت تسمح بكدة ...

تربيتها كانت مقفول عليها تمامًا، وممنوعة من التصرف بحريتها ...

كل حاجة تحت السيطرة وبأوامر من والدها ...

وللأسف لما اتجوزنا أنا كمان كملت عليها، وهمشتها تمامًا في اتخاذ القرارات وفي مجريات حياتنا؛ لدرجة إني حسيت إنها إستسلمت للأمر الواقع، وبقت بتكبر دماغها من أي مسئوليات، وبتستسهل إنها تحدفها عليا ...

أنا كنت مبسوط من كدة، بس ده طلع للأسف أكبر غلط وقعت فيه...

كان لازم يكون ليها مساحة محترمة لفرض شخصيتها وتطويرها؛ لأنه كان هيعود علينا بالخير وعلي علاقتنا بالقوة والمتانة ...

لكن اللي حصل أنها بدأت تفقد الثقة في كل شيء حواليها، وأعتقد إنها فقدت الثقة في نفسها كمان ...

اللي زود الطين بلة بقي أنها اكتشفت عدم قدرتها على الحمل ... طلع عندها مشكلة في الرحم، واتحكم علينا نعيش بدون ما نخلف ... يعني فقدت الأمومة ...

كل ده مع غيرتها القاتلة سببلها ضغط نفسي وعصبي شديد ...

تشوفني بتكلم في التليفون يبقي بكلم واحدة ...

تشوفني قاعد على الكومبيوتر يبقي بتفرج على أفلام إباحية ...

لما اتأخر في الشغل غصب عني طبعًا يبقى كنت مع واحدة تانية ...

أطلع مأمورية يبقى أخدت الواحدة التانية دي وطالع معاها رحلة ...

وسواس قهري دمر حياتنا الجميلة...

أعتقد كان نفسها تربطني في رجل السرير علشان تنام مطمنة ...

مع الوقت كانت كلمة حبيبي بسمعها منها كأنها بتمثل على المسرح ...

شايفاني طول الوقت جبل ما بيتهزش ...

مطلوب مني أحافظ على مشاعرها بدون ماهي تتعب نفسها، وتحافظ على مشاعري ...

مطلوب مني أحضن وأطبطب وأقول كلام غزل وحب، وهي ماتعملش كدة من نفسها، حتى لو أنا محتاج كدة بس مش قادر أطلبه...

نادر جدًا لما تطلبني لحضنها مع إني محتاجه... محتاج أحس إنها عايزاني ... تربيتها وعقيدتها كانت بتفرض عليها إن لازم أنا اللي أطلبها ...

كنت بتمنى كتير أدخل من الباب ألاقيها بترمي في حضني ...

كانت بتوصلني للباب وتستقبلني ببوستين، وفي الآخر كنت بحسهم باردين كأنه أداء واجب ...

بقيت أهرب منهم؛ كانوا بيحسسوني بالمسافة اللي بقت بينا ...

أنا مش ملاك ...

أكيد عملت مواقف ضايقتها، وعصبيتي وعدم سيطرتي على لساني أثناء الخلافات كانت سبب في نفورها مني أوقات كتير...

بس فيه شرخ حصل، وكان بيزيد مع الأيام في علاقتنا ببعض ...

رغم إننا محافظين على منظرنا وتماسكنا الاجتماعي قدام الناس ...

لكن الحقيقة إحنا كنا بنمثل عليهم، وكمان كنا بنمثل على بعض ...

كتير كنت بحاول أرجع الأيام الجميلة ... حاولت ... بس كنت حاسسها كل يوم مشاعرها بتتجمد عن اليوم اللي قبله...

في وقت حسيت إنها خلاص كبرت دماغها مني ...

للأسف بدأت أهملها وأبعد عنها ...

كنت بدخل البيت عامل نفسي تعبان وعايز أنام ...

بطلت أتكلم معاها ... قفلت وداني،ومش عايز أسمعها ...

تفتح موضوع أقفله أنا، وأهرب بأي طريقة ...

لغاية لما لقيتها بدأت تتشغل بتليفوناتها مع صديقاتها، وبتقعد في النادي بالساعات ...

أستريحت أنا كدة؛ ماكنتش عارف أن فيه كارثة في الطريق بسبب إهمالي ليها وعدم سماعها، وأني أسيبها لحالها كدة...

كان المفروض بخبرتي الكبيرة في الحياة أعرف أنها وحيدة ...

والست الوحيدة فريسة هتحوم حواليها الذئاب ...

لكن علشان كنت واثق فيها وفي أخلاقها أكتر من ثقتي بنفسي مافكرتش أبدًا أنها ممكن يتضحك عليها من أي حد...

قبل حادثة حبيبة بأسبوع حسيت أنها متوترة جدًا...دايمًا سرحانة.. مشغولة وهي فاضية...

المهم قعدت أضغط عليها، وأضيق عليها...

الحقيقة هي كانت بتخاف على زعلي جدًا..

المهم انهارت واعترفت أنها أتعرفت على واحدة اسمها ناني في النادي، وكانت بتحكيلها عننا كتير، ومن غيرتها الشديدة عليا قالتلها اني بعرف عليها حد، وهي عايزة تعمل أي حاجة علشان تخليني ليها هي بس...

الشيطانة قالتلها إنها تعرف دجالين وممكن تساعدها، ويعملولي عمل علشان أفضل معاها، واحبها هي بس..

وبدأت تسحب منها فلوس على حس الموضوع ده... ولما الصداقة تطورت بينهم.. قالتلها إنها لازم تغريني وتجدد من نفسها.. عرفتها موضوع الرسم التجريدى... وسحبت رجليها للمرسم بتاعها...

هناك رسمتها عريانة؛ وصورتها وهي بترسمها... مش هطول عليكم...

بدأت تساومها على الصور وموضوع الأعمال، وإنها هتفضحها وتفضح أهلها وهتبلغنى...

حبيبة كانت مرعوبة ...

حبيبة دي يا دكتور نسمة رقيقة ماتحسش بيها ... في رقة ورق الورد ...

المهم من رعبها كانت بتدفعلها من حسابها اللي في البنك...

لغاية لما ناني طلبت منها مبلغ كبير..

هنا حبيبة هنجت زي الكومبيوتر وتوترت، وبعد ضغط اعترفت ليا بكل حاجة...

أنا ماسمعتش برضه وكسرت البيت...أتجننت... كنت بصرخ في وشها بأعلى صوتي، وقولتلها أني هطلقها وهبلغ والدها..

حتى آخر فنجان كابتشيكوعملته وكنت بشربه..حدفته عليها...كان مغلي.. حبيبتى.

أنا ألمتها نفسيًا وجسديًا..أنا مجرم..استحق الإعدام...

نزلت من البيت مش عارف أعمل إيه ولا أروح فين...

وهي افتكرت إني رايح لأبوها زي ما هددتها...

أعصابها خفيفة ما استحملتش الضغط العصبي الرهيب اللي حصل ...

مافيش دقايق لما وصلت لآخر الشارع سمعت خبطة جامدة على الأرض، والناس بتصرخ وتجرى...

بصيت ورايا لقيت حبيبتي حبيبة هي اللي وقعت من فوق...

جريت بسرعة قلعت قميصي وسترتها...

ناديت بأعلي صوتي على الإسعاف...ياناس أألحقونا... الإسعاف بسرعة...

للأسف كان قضاء ربنا نفذ..... سافرت حبيبتي ... راحت للي هيسمعلها ... راحت للي عارف أنها بريئة ومظلومة ...

راحت للي هيجيبلها حقها من كل اللي ظلموها، وأكتر واحد ظلمها هو أنا ...

راحت لمكان أجمل من اللي أحنا عايشين فيه ...

في الجنة إن شاء الله يا حبيبتي.

الدموع تنساب من عين عمر كالسيل العارم لا تتوقف...

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

احتضن د. مصطفى عمر لحظات؛ فهدأ وعاد ليستكمل حديثًا يريد أن يطهر به روحه ... اعتراف كامل بمسئوليته عما حدث...

- الناس كلها وأهلها فاكرين أنها داخت ووقعت قضاء وقدر..

انا بس اللي أعرف الحقيقة...حبيبة...حبيبتي انتحرت... أكيد...أنا السبب... كان لازم أسمعلها...كان لازم أهدأ... كان لازم أحل مشكلتها مش أزودها....خسرت حبيبة وخسرت الدنيا كلها...

– معلش سؤال سخيف مش وقته... انت قلت قبل كده أن الكباتشيكو كان آخر فنجان شربته قبل ما حياتك تتقلب رأسًا على عقب...إيه حكايته؟؟

– فعلًا كان آخر حاجة عملتها حبيبة بأيديها، كانت عارفة اني بحب المشروب ده، وبيخليني هادي ...

وشربته من هنا، وبدأت الاعتراف من هنا..كانت فاكراني هسمعها وهساعدها... والله كنت هساعدها... فيه حد يفرط في لحمه... بس هي استعجلت...فهمتني غلط...لكن أنا السبب في موتها... أنا السبب.

– طيب أهدى، ونكمل وقت تاني ياعمر.

– لأ يا دكتور أنا عايز أستريح، وفرصة أنت وجهاد تبقوا شاهدين عليا...عايز أستريح.. حتى لو هتبلغوا عني ... أنا مستعد للاعتراف ... مستعد للمواجهة ... أنا مش ضعيف ... مش ههرب تاني ... أنا قوي، ولازم أتحمل نتيجة كل اللي عملته وأتسببت فيه ...

– طيب كمل... اتفضل.

– بعد الجنازة والعزاء أنا كنت زي الأسد المجروح، وكنت مصمم على الانتقام...

عملت مراقبة للشيطانة ناني وجوزها، ودرست المنطقة كويس، ولما أتأكدت أن ولادهم نزلوا وركبوا الباص بتاع المدرسة وأنهم في الشقة لوحدهم...

طلعت رنيت الجرس فتحتلي ناني، ضربتها على دماغها بشاكوش حديد وقعت مكانها..سحبتها وقفلت الباب، ودخلت لقيت جوزها نايم ضربته ضربة واحدة ماخدش غيرها...

انتقمت لحبيبة من الشياطين... دورت على الشرايط والصور...

لقيتهم عاملين سجل لستات كتير...كاميرات..لوحات...اخدت اللي قدرت أخده...نزلت كان البواب في غرفته وماحدش حس بحاجة....

سيبت القاهرة كلها، وقفلت تليفوناتي، ووصلت هنا، وكان قراري أحصّل حبيبة...

لكن الصدفة جمعتنا يا دكتور....

- أنت متأكد يا عمر من الكلام ده؟

- أيوة يا جهاد طبعًا... أنا قتلتهم بأيديا والشاكوش رميته في الصالة قبل ما أنزل....مش عارف رميته هناك ليه ... بس كنت عامل حسابي ولابس جاونتي، ومتأكد أن مافيش ليا أي بصمات ...

أنتي ليه مش مصدقاني ... أنا مجرم ...

أنا قتلت حبيبتي، وقتلت الشياطين...

أكيد فيه كاميرات في العمارة، وسجلت دخولي وخروجي، وزمان الشرطة بتدور عليا ...

- يا دكتور... عمر بيخرف... أنا عارفة الحادثة دي كويس..أنا ساكنة قريب منهم في حدايق الأهرام... يابني مش أنت اللي قتلتهم...

- إزاى... باقسملك أنا القاتل..... واللي حكيته ده حقيقة.

- لأ مش أنت حتى لو كلامك صحيح.... البواب اعترف بالجريمة..

- إيه؟؟؟؟؟؟؟؟... إزاى؟؟؟؟؟؟

- افتح الكومبيوتر، واكتب جريمة قتل بحدائق الأهرام، هتعرف الحقيقة....واضح أنهم كانوا لسه عايشين يا عمر... أنت ماقتلتش حد..... شكلك عورتهم بس ...

- إنتي بتقولي إيه ... مش ممكن أنا سيبتهم ودمهم سايح ...

- تعالي ياعمر الكومبيوتر قدامنا، والميه تكدب الغطاس ...

فتحوا اللاب توب، وكتبوا جريمة في حدائق الأهرام، وكان ما ذكرته جهاد حقيقيًا ...

آخر جملة في التقرير المكتوب ...

يتبقى لغز الشاكوش الحديدي الملقى في الصالة لغزًا يحير رجال المباحث، فبعد اعتراف البواب والبلطجية بجريمتهم أنكروا وبشدة معرفتهم بهذه الأداة الملطخة بالدماء...

وقفلت القضية عند رجال المباحث باعتراف الجناة، وتم تحويلهم لمحكمة الجنايات ...

استلقى عمر على الفراش وكأن جبلًا قد انزاح من على كتفيه، وأطلق ضحكة عاااااالية هزت أرجاء المكان؛ فارتمت جهاد في حضنه، وبعد الضحكات بدءا في نوبة بكاء ...

دموع يتطهر بها مما تبقى من آلام إحساسه بالذنب ... اختلطت بدموع العاشقة الذي أعاد إليها القدر حبيبها التي تمنته من الله ...

انسحب د. مصطفى في هدوء؛ ولم يشعرا به ...

أغلق الباب خلفه، واتجه للبحر على اللسان المواجه لعمارته في جليم ...

جلس على صخرة كبيرة، وأطلق صيحة عالية سمعتها الأسماك في أعماق البحر

(المواجهة قوة ..... الهروب ضعف) .....

[تمت]

وائل رضوان

(القاهرة في ١١/ ٩/ ٢٠١٩)